فاطمة العوا

معها

معزوفة جميلة تعود بنا للصغر والصبا

قصص قصيرة

السراج

"مع الأمهات والأبناء والآباء...في بيوتنا..
وبيوتٍ أخرى كثيرة، تشبِهُ بيوتنا..."

إهداء

إلى أمِّي، وكلِّ أم.

إلى ابنتي، وابني، وكلِّ الأبناء والبنات.

حِضنُ أمي

تركضُ الأمُّ وراء الصغير الذي قفزَ بعيدًا عن كتّابِ مادة الحساب، تتعالى الضحكات المكتومةُ من الأولاد الجالسين للمذاكرة على السفرة، يسمع صوت هبد باب، في الأغلب بابُ الحمام الذي يعلوه زجاج، يرتفع صوتُ الأم بغضبٍ راجًّا المنزل.. "طيب، بسّ لما تطلع.. أنتَ هتفلح يعني هتفلح، وهتذاكر يعني هتذاكر...".

وتزيد...

"غصب عن عينك.. هنشوف".

تتوجَّه الأم لكنبةِ غرفة الجلوس، تجلس في مكانها المفضّل على الكنبة بجوار الطاولة التي تفصلُها عن كرسي الأب الهزاز. ترفع قدميها على الكرسي الصغير الموضوع دائمًا أمام مكانِ جلوسها على الكنبة. تعتدل في جلستها، تضع يدًا على مسند الكنبة وتسند يدَها الأخرى على خُدّادية الكنبة، بينما يجلس قُبالتها بقيةُ الأولاد على السفرة يذاكرون، ويختلسون- بين الحين والآخر- النظرَ إلى الأم لاختبار مدى غضبها.

بعدَ قليل، تسند الأم رأسَها إلى الوراء....

يلاحظ الأولاد أنّها نامت...

يفتح الكبير التلفازَ على فيلم التاسعة الأجنبي، ويُخفض الصوت كي لا تستيقظ الأم.

يمسك الآخرُ باللعبة الإلكترونية التي أحضرها الأبُ من سَفرته الأخيرة، ويجعلها على الصامت ويشرعُ في اللعب.

الفتيات الثلاثة يتسلَّلنَ واحدة بعدَ الأخرى متَّجهاتٍ لغرف نومهن.

عندما يسودُ الصمت، يفتح باب الحمام ويتسلَّل الصغير إلى الخارج.

يتوجَّه إلى الكنبة التي تنام عليها الأم، ويفرد جسدَه عليها واضعًا رأسه في حجر الأم.

يرفع الصغير ذراعَ الأم المسنود على الوسادة ويلفُّه حول كتفه، وهي مازالت نائمة.

تحكم الأمُّ ذراعَها حول الصغير لاشعوريًّا..

يستكين وينام.

***

بينما أنهى مع زوجته تحضيرَ طعام العشاء في زيارةٍ سريعة لمنزلهم القابع على أحدِ تلال مدينة برمنجهام الإنجليزية، الواقع على مشارفِ منتزهٍ كبير حيث أمضيتُ معها يومي تجوّلًا واستمتاعًا بالطَّبيعة الإنجليزية الساحرة، ونميمةً على أخي الطبيب زوجها، نتندَّر أنا وهي على تأخره في العمل، وولعِه به على حساب كلِّ شيء آخر، يصلُ أخيرًا، يقبِّلني ويقبِّلها، ويجلس ببدلته على طاولةِ العشاء وهو يقول: "ميت من الجوع". تقفُ خلفه، وبهدوءٍ تسحب منه الجاكيت وتعلِّقه على شماعة عمودية في ركن غرفة السفرة، نجلس جميعًا نأكل ونتحدَّث، تعجبه المسقعة التي صنعتُ لهم مع الأرز بالشعرية وشوربة العدس، ويضحك قائلًا مشيرًا إلى زوجته: "علِّيها كام حاجَة مصري وانتِ هنا". أعقِّب

بقولي: "زوجتك طباخة ماهرة ما شاء الله، أنتَ واقع واقف!". نقوم من على السفرة وننتقل لغرفة المعيشة.

تأتي زوجتُه بالشاي بالحبهان، تفوح رائحتُه تعبئ الغرفة، يجلسان على الأريكة الكبيرة التي تواجه التلفاز، بينما أجلس على الصغيرة العمودية عليها في غرفةِ جلوسهم الرمادية المزيَّنة بلوحةٍ خيامية كبيرة بدرجات اللون الأزرقِ غيرِ التقليدية في هذا النوع من الفنون، صنعَها خصيصًا في آخرِ زيارة للقاهرة لتناسب ألوانَ بيته الجديد. نجلس ونتحدَّث عن العمل وعنْ أولادي وزوجي، لا أفتح معه موضوعَ الأولاد، أعلمِ أنه لايريد الإنجابَ خوفًا من تركه لهم مبكرًا كما حدثَ مع أمِّنا، ولكني آملُ أن تقوم زوجته بتغيير رأيه في الأمر يومًا ما.

يخلع حذاءه، ويتمدَّد على الكنبه، متوسِّدًا رجْلَ زوجته، بعدَ قليل يغمضُ عينيه ويبيتُ في سباتٍ عميق، بينما يرتفع صوتُ تنفسه يمد يدَه ويسحبُ ذراعَ زوجته ويلفه حولَ جسده في نعومة، ويُحكم فردَ رجليه، تبتسم هي لي في خجلٍ وتقول: "كلّ يوم لازم ينام كده الأول، وبعدين يطلع السرير". أطيل النظرَ إليه نائمًا وأبتسم، وقبلَ أن تلاحظ رغرغةَ عيوني بالدموع أديرُ وجهي نحوَ شباك غرفة الجلوس الذي يطلّ على حديقة منزلهم الكبيرة، أرى طائرًا لم أعرفه من قبلْ، أزرق في أسود، يسير بتؤدةٍ على حرف الشباك، قالت زوجته وقد رأتني أنظرُ إليه: "مِن الطيور المهاجرة، جاء مع السرب بتاعه، وقعد هنا، لم يغادر معهم، يقولون لا

يحدُث هذا إلّا إذا فقد الطائر أمه".

القماشة الركامة المقلّمة

تضبط الأمُّ القماش الركامة الأبيض المشغول بالأصفر المذهَّب على ماكينة الخياطة التي أتتْ بها من سويسرا ولا تَستخدم غيرها في الخياطة.

تتظاهر الابنةُ بالقراءة وهي تختلس النظرَ لما تقوم به الأم.

تتوقف الأمُّ وتندَه الابنة، وتقيس مقاسَ الوسط، ثمَّ تُكمل الخياطة، تحول القماش المشغول إلى جونلَّة بليسيه، كلّ كسْرة وجهها الشغل الأصفر، وظهرها المتني الركامة البيضاء السادة.

تنادي الأمُّ على الابنة بعد أن تنتهي من خياطةِ الجونلة، وبسرور وسعادة بادية على وجهها بإنجازها تطلبُ من الابنة قياسَ الجونلة.

بينما الأم فَرِحة بنتاج الخياطة، يضطرب وجهُ الابنة، ويظهر عليها- بوضوح- عدمُ الرضا.

تأخذ الجونلة وتتَّجه لغرفتها لقياسها، بينما تسير.. يرتفع صوتُ الأم: "بتدبدبي ليه!؟"

"ما بادبدبش"

تخلع بنطلونَ الترينج وترتدي الجونلة، تنظر إلى نفسها في المرآة، لا يسرُّها ما ترى.

بدلًا من أن تعود أدراجَها إلى الأم، تخرج إلى البلكون الذي يربط كلَّ الغرف معًا بالصالة، إلى حيث يجلس أبوها يقرأ كلَّ يوم في الإجازة وردَ القرآن

بصوتٍ مرتفع ليستيقظ الجميع، يتبعه بعدَ ذلك بقراءةٍ في صحيح مسلمٍ معَ فنجان القهوة التركي، يشعر بها فيرفعُ رأسَه لها مبتسمًا فيرى وجهَها المضطرب.

تقول له مشيرةً للجونلة...

"شايف، ده منظر ده! ماما مش بتفصَّلي، بتفصَّل للبنت اللي هي كانت عايزاها، اللي زيَّها.. اللّي شبّهها وهي صغيرة، البنت الرفيَّعة اللي هي مش أنا، القصيرة الصغنّنة، مش أنا، عاجبك كده! كرنبة، بليسيه وأبيض في أصفر!!".

ضحكَ الأب وقال لها: "طيب ما تقلقيش، تعالي معايا".

يأخذها تحتَ ذراعه ويدخل الصالة حيث تجلسِ الأم، التي تدرك بذكائها وخبرتِها كنْهَ الموقف فور رؤيتهما.

يتوجَّه الأب إلى الأم ويضع كفَّه على كتفها مدلِّكًا كما يفعل عادةً وهو يكلمها ويقول لها: "إيه رأيك.. متهيَّألي خلاص بلاش تفصيل للبنت دي، بعد كده تشتري جاهز أحسن؟!".

تغضب الأم، تنظر إلى الجونلة، وبينما تدرك فعلًا أنها لا تناسب ابنتها تقول بغضبٍ وهي تغلق نورَ الماكينة وتُحكِم الغطاءَ عليها: "خلاصٍ انتهينا، آخِر مرَّة، وكمان الجونلة تاخدها أختها الصغيَّرة، خلّيها بقى تدوخ في الجاهز".

يطلب الأبُ من الابنة أن تصنعَ فنجانيْ قهوة له

وللأم، وتأتي بهما للبلكون التي ترى البحر باتساع.

تدخل الابنةُ وهيٍ فَرِحة إلىِ غرفتها، تخلع الجونلة البليسيه، تطويها جيداً، تعيد لبس بنطلون الترينج.

تخرج إلى الصالة، تضع الجونلة فوقَ الماكينة.

تتَّجه إلى المطبخ، تصنع فنجانيِ القهوة، تخرج بهما للأبِ والأم فيِ البلكونة، يأخذ الأبُ فنجان الأمِ يناولُه لها، ثمَّ يأخذ فنجانه، مازالت الابنة واقفة أمامهما، يرشف الأبُ رشفة من الفنجان ويرفع عينيه إلى الابنة ويقول: "مضبوطة قوي".. ويشير بوجهه تجاهَ الأم، تفهم الابنة، تميل لتضمَّ الأم، تشيح الأمُّ بوجهها وهي تقول: "عملتِ اللّي انتِ عايزاه برضه، أنتِ حرَّة". تعانقها الابنة بقوةٍ غير تاركةً لها فرصةً للاعتراض.

***

انتقلتْ للعيش في مدينة سوانزي الإنجليزية مع أولادها وزوجها أستاذِ الجامعة، الذي حصل على فرصة عملٍ في جامعة سوانزي، تخلت عن عملها في الجامعة لتكون معه، وستحاول- بينما هي هناك- أن تجدَ عملًا مناسبًا لها.

عادَ أولادها من اليوم الدراسي الأوَّل لهم، وهم في غايةِ الغضبِ من كلِّ ما هو جديد في حياتهم المدرسية، رفض الولدُ تناول الطعام وقال غاضباً: "شبعان!".. بينما الابنة الناقة ناولت أمَّها ورقة من المدرسة وقالت: "عندنا حفلة تنكرية، المفروض كلّ واحد يلبس لبس تنكري مِن بلده، ممكن تقوليلي هنلاقي لبس فراعنة فين هنا!؟".

أخذت الأمُّ منها الورقة بهدوءٍ وهي تتمنّى أن يمرَّ اليومُ الصاخب من بدايته على خير.

ثاني يوم، بعدَ أن أوصلتهما للمدرسة سألت إحدى المدرِسات عن محلات القماش في المدينة لتفاجأ أنّها يجب أن تتوجه لكاردف القريبة منهما، حيث سوق سوانزي الصغير نسبيًّا. خطرَ في بالها أمر آخر، سألتْ عن محلات الملابس المستعملة، دلّتها المدرسة على أقرب واحد في الحي.

ذهبتْ للمحل، وبعد بحثٍ وتنقيب وجدت فستانًا يميل للّون الأصفر، ركامة مقلم أبيض في أصفر، يميل للذهبي ساطعِ اللون، وبنطالًا أسود لامعًا من الساتان.. أطالتِ النظرَ للفستان الأصفر وابتسمتِ ابتسامةً خفيفة، فقد أخذَها سنواتٍ للوراء، اشترتهما وعرجتْ على السوبر ماركت الكبير اشترت منه ورقًا مقوّى وعلبة خياطة صغيرة، تمنّت لو أن ماكينة أمها معهَا الآن! أمضتِ اليوم كلَّه تصنع ما فكرت به. عند عودةِ الأولاد دخلت الابنة إلى غرفتها متبرِمة كعادتها هي وأخوها منذُ غادرا القاهرة، خرجت بعدَ قليل صارخة: "ماما.. ماما.. إزّاي عملتيه!! تحفة". كانت تحمل في يدِها تاجَ توت عنخ آمون المقلم، صنعتْه الأمُّ من قماش الفستان والبنطال، وقوّته داخليًا بورق الكرتون المقوّي الذي اشترته صباحًا. احتضنتها الأم وهي تضحك وتقول: "واستنّي لما تشوفي عقد نفرتيتي، ده بقى عملته من عقد قديم عندي، حوِلته فرعوني". أخذت ابنتها تحتضنها وهي تردِد: "بجدّ شكرًا، شكرًا يا ماما". بادلتها

الأمُّ الاحتضان وهي تبتسم وتقول: "سبحان الله بعد كلِّ السنين دي يظهر تاني القماش الركامة الأصفر، ويكون له فايدة!".

الماكينة الإلنا السويسري

تفردِ الأمُّ باترون مجلة البوردا، تندَه الابنة، تسألها:

"بتعملي إيه؟"

"بقرأ"

"عايزه أعلمك الخياطة"

"بكْرَه الخياطة، وبكْرَه التريكوه، وبكْرَه الكروشيه والكنفاه، و"

الأم مُقاطعة: "يعني بتكرهي كلّ حاجة أنا باعْملها؟!"

"مش قصدي يا ماما، بسّ هي أشياء مملَّة"

تمسك الأم يدَ الابنة وتدعوها للجلوس...

تنظرُ لها برفق وتقول: "أنتِ عارفة الحاجات دي عبارة عن إيه؟!"

تردُّ الابنة بملل: "إيه!"

"بناء يا حبيبتي.. بتخطّي خطوة وخطوة وخطوة.. وتكتمل اللوحة أو الفستان، أو.. أو. لازم تتعلمي علي الأقل المبادئ عشان لو احْتجتيها في حياتك لأيِّ سبب، على الأقل عشان مفيش خياط يضحك عليكِ"

"طب إيه!.."

تتجاهل الأمُّ صيغةَ السؤال غير اللائقة وتقول: "طبِ اختاري حاجة واحدة نتعلّمِيها، وهنعمل كلّ يوم خطوة واحدة لحدّ ما نخلَّص.. ههه"

"حاضر يا ماما، طيّب والقِصَّة؟!.."

"أنهِ قِصة!؟"

"اللي بقرأها، ده برنامج القراءة بتاع بابا، بناخد على القصة 5 جنيه".

"طيب أنا هدّيكِ على القطعة اللي تخلِّصيها 15 جنيه".

"والله!؟"

تعقد الأمُّ حاجبيها وتقول: "ما بنقلْشِ للكبار والله! لأنك كده كأنك مش مصدَّقاهم، ممكن تقولي بجدّ! وممكن تقولي معقولة! فاهمة؟".

"حاضر".

"قومي افتحي دولاب القماش، واختاري القماشة اللي تعجبك.. ولو عجبتك النتيجة إلبسيها.. ما عجبتكيش ما تلبسيهاش، وما تنسيش إنّك هتخيّطي على ماكينة الإلنا السويسري، أحسن ماكينة في العالم، أحسَن من السينجر".

تختلس النظرَ لأختها الصغيرة التي تنظر لها، بينما تمسك قصَّة في يدها وتضحك في سرِّها، عالمةً بمدى ضيق الكبرى. تبادلها الكبرى النظرَ لمعنى "مسير الدور يجي عليكِ".

"اتفقنا..". قالتها وهي تقوم بتكاسلٍ وضيق من على الكرسي للغرفة التي تطل على المنوَر، والتي تُستخدَم مخزنا لكلِّ شيء، بما فيها قطع القماش الكثيرة التي تهوى الأم شراءها وتجميعها. تختار قماشة نبيتي غامق ناعمة، بها ورود بألوان النبيتي المختلفة.

تأخذها للأم، التي تقول: "رائعة.. نعملها جونلة

قصات".

في اليوم الأول، علَّمت الأم الابنةَ كيف تشفّ الباترون من مجلة البوردة بعدَ أن تختار المقاس المناسبَ وفقًا لمقاسات المجلة. شفَّت الابنة الباترون، ثمَّ قصته تاركةً حولَ كل قطعة 2 سم زيادة كما نصحتْها الأم.

في اليوم الثاني، دبَّسَا الباترون على القماش وقصَّاه معًا، طوتْه الأم كأسطوانة دون أن تفكَّ عنه وريقات الباترون ووضعته بعناية بجوار الماكينة الإلنا بعدَ أَن أغلقتْ جوانبها وغطتها بالغطاء البلاستيكي الخاص بها.

في اليوم الثالث، خيَّطت الأم أولَ قطعتين من قصّات الجونلة معًا، تاركةً الابنة تفعل في الباقي بالمثل.

في اليوم الرابع، قامتِ الأم بخياطةِ الأطراف الداخلية للجونلة، ما أطلقت عليه "سرْفَلة"، وتركت الابنةَ تقوم بالباقي.

في اليوم الخامسِ، تنتِ الأم حرفَ الجونلة وأصرَّت أن تقوم به وحدَها بينما الابنة تراقب، ركَّبت الأم الزرارَ والسوستة وهي تعلِّم الابنة كيف تركِّب الزراير كما الملابسِ الجاهزة. وفي نفس اليوم، تركتِ الأم للابنة مهمةَ تركيب الكَمَر.

في ذاتِ الليلة، خرجَا معًا لشراء تي شيرت من موباكو، يليق بألوانِ الجونلة، وحذاءٍ خفيف من محل ريم.

في اليوم السادس، ارتدتِ الابنة كلَّ هذا، واستعدَّت للخروج لحضور درسِ المراجعة، عرجت على الأب

في مكتبه حيث يرتدي جِلبابًا سودانيًا ويكتب.. نظرَ إليها وغمز قائلًا: "الخياطة حلوة أهي!؟".. حضنته وهي تبتسم: "روحي، اشكري أمّك وبوسيها بقى"...

خرجتْ للصالة حيث تجلس الأمُّ تقرأ وتُشرف على مذاكرة الصغار. "رائع..." قالت الأم وهي تنظر إليها، وزادت: "الألوان تحفة"

"شكرًا يا ماما" عانقتها الابنة.

الأم: "مش ناسية حاجَة!؟"

الابنة: "إيه!؟"

الأم وهي تمدُّ يدَها إلى جيب جلبابها: "دي فلوس الدرس، ودول 15 جنيه مكافأة أول قطعة"

ضحكتِ الابنة، وعانقت أمَّها بقوة.

***

بينما تتجوَّل في مدينة باريس، تأخذها خطواتُها لشوارع جانبية لم ترَها من قبل فِي زياراتها المتعددة للمدينة، تكتشف في أحدها وجود محلٍ "موباكو المصري"، تقف بإعجابٍ أمام الفاترينا المرتّبة بشكل كلاسيكي، تتجوَّل بعينيها بين المعروضات، وإذْ تحوِّل وجهها ناحية اليسار تقع عينُها على محلٍّ أبيض صغير منمَّق جدًّا، به ماكينة خياطة واحدة في العرض، تسيرُ نحو المحل، الماكينة الإلنا السويسري، لماذا ماكينة واحدة في العرض؟!

تدخل المحل، وتتعرَّف على الرجل الذي أخبرها أنَّ هذا النوع يأتي بالطلب من سويسرا، وأنهم متخصِّصون

فقط في بيع هذا النوع وإصلاحه. تنظر للموديل في الفاترينا، تبتسم وتسأله: "ألا يوجد سوى هذا الموديل؟!".. "لا نصنع سواه هذه الأيام". تبتسم وتطلب أن تقومَ بشرائه، يخبرها الرجل أنها ستأخذ أسبوعًا لتصل. تبتسم وتؤكِّد على طلبها.

تعود للقاهرة حاملة الماكينة الإلنا، تضعُ حقيبتها في المنزل وتتوجَّه من فورها لزيارة أختها الكبرى. بعدَ السلامات والأشواق تسألها أختها عن الصندوق الذي معها، تردّ: "مفاجأة.. ما قدرتش أصبر للإفطار الجماعي يوم الجمعة عشان أجيبهالك". تفتحا معًا التغليف، الصندوق لونه بيج، ومكتوب عليه بالأحمر في الزاوية اليمنى.. "إلنا". تنظر إليها أختها غيرَ مصدِّقة، تفتحان معًا الصندوق في عجالة، تنظران للماكينة إذ تظهر بعدَ رفع الغطاء عنها، إنها الماكينة الإلنا بشحمها ولحمها، هذه المرَّة الغطاء بدلًا من أن يكون معدنيًّا مصنوعًا من الباغ الشفاف. تحتضنها أختها وعيونهما تفيض بالدموع، تقول الكبرى: "يهدها الذكريات". تضحكان معًا بصوت عال.

الصندل البالي

بينما يتناولون إفطارَهم يومَ الجمعة، يحدِّثهم الأب عن سفريتِه القادمة غدًا إلى المغرب. تطلب الابنة حذاء أديداس من "اللي نازلين بأسامي نجوم الرياضة"...

تعلِّق الأم: "مش حابَّة تجرَّبي حاجة من حاجتي؟!".

الابنة: "لأ".

وتغادر المطبخ مسرعةً، مخافة أن تحاول الأمُّ إقناعها

يقضون يومَ الإجازة بهدوء، اليوم الذي يليه، بينما يستعدّون للذهاب إلى المدرسة يحضِر الأبُ للسفر، يسلمون عليه وينزلون لأخذ الباص.

توصل الأمُّ الأبَ إلى المطار، ثمَّ تعرج على عمارات العبور حيث فتحتْ مجموعة من محلات الملابس المستوردة التي اعتادت أن تبتاع منها ملابسَها خارج مصر.

تتجوَّل الأم، ثمَّ تدخل محلَّ أحذية بالي الشهيرِ الغالي، تجرِّب كلَّ الأحذية، ثمَّ تختار صندلًا نبيتيًّ اللون، بشرائط منِ الوجه، وكعب 3 سم، تذهبُ لتدفع، فيلفتُ نظرَها حذاء آخرُ بوجه مستديرٍ مما تحبُّه ابنتها، وكعب 3 سم أيضًا، دفعت الأمُّ ثمنَ الحذاءين، وخرجت من المحل في طريقها إلى المنزل.

عندَ عودة الأولاد من المدرسة، تهلَّل وجهُ الأم وهي تأخذ الابنة وتقول لها: "عملالك مفاجأة...". وهي تُخرج الأحذية الجديدة من الأكياس تقول لها: "مش

عايزه تجرَّبي جزمي ماشي، جبتِلك حاجات خاصَّة بيكِ أهه"

نظرتِ الابنة للأحذية واكفهرَّ وجهها: "دي بكعْبا".. "أيوه، ما انتِ بنُوتة، لازم البناويت يلبسوا كعب صغنَّن".

" مش هعرف أمشي بيهم، ده كمان كعب خشب، وأحمر!!"

" جرَّبي طيب"

" مش بحبِّ أنا الشكل ده.. أنا بحبِّ اللي برباط أو سكوتش"

" ما انتِ عندك دول.. لازم الإنسان يجرَّب كل حاجة.. وما يقُلش على حاجة لأ"

"...طيب حاضر". لا يمكن تفوز أبدًا في مناقشةٍ مع أمها.

توجَّهت لخارج الغرفة، قالت الأم: "مش هتاخدي الجزم!؟"

" آه.. حاضر"

أخذتِ الأحذية وألقتْها في قاع دولاب ملابسها بغضب...

مرَّ الأسبوع الدراسي بهدوء.

يوم الجمعة موعدُ عودة الأب من السفر، كعادتهم استعدّوا جميعًا للذهاب إلى المطار لاستقباله، بينما يرتدونَ ملابسهم قالت الأم: "البسي بقى الصندل الجديد

وانتِ رايحة عشان بابا يفرح بيكِ..."

حدَّثت نفسها.. ها قد بدأت الخطة...

ردَّت: "طب ممكن لما ييجي ألبسها وأوريهاله!؟".

"لا، كده أحسن"

" مش هعرف أمشي في كعب..."

" هتتعوِّدي..."

" ممكن أبقى ألبسهم في البيت لحدِّ ما اتعود..."

"يا بنتي ما تتعبيش قلبي.. قولي حاضر"

"حاضر"

ارتدتِ الابنة الصندل الجديد، والأمُّ تنظر لها بإعجابٍ وفخر شديدين. واتجه الجميعُ للنزول، على بابِ العمارةِ تعثرتِ الابنة في سلّمة المدخل وانكسرَ الكعبُ وسقطت الابنة على الأرض، هتفتِ الأم: "الصندل البالي"...

توجَّهت إلى الابنة حيث كانت تسبقها ببضع خطوات، فوجدت الابنة تبكي وتقول بينَ دموعها بغضب: "أنتِ السبب، قلتلك مش هعرف أمشي بيه.. دلوقت مش هروح معاكم، كويس كده!"

نظرتِ الأم بدهشةٍ للابنة، لوهلةٍ صمتَت، ثمَّ ابتسمت بحنانٍ وقالت لها: إدِّيني الفَردة التانية، خلعتها الابنةُ وتناولَتها الأم، كسرت الأمُّ الكعب الخشبي الثاني، وابتسمتْ وهي تناول الابنة الحذاء وتقول: "دلوقت الاتنين زيّ بعض، وتقدري تمشي بيهم". ساعدتها على

الوقوف، سألتها: "كده أريح!؟"

" أيوه، شكرًا يا ماما"

" لمّا نرجع نعمل كده في الجزمة التانية برضه، موافقة؟!"

" موافقة طبعًا"

أمسكتِ الابنة بيدِ الأم وتوجَّها للسيارة، والأم تنظرُ إلى الكعبين بجوار الحائط وهي تقول: "في داهية الكعوب البالي".

***

منذُ ذلك اليوم لم ترتدِ أبدًا أيَّ حذاء بكعبٍ عالٍ، حتى بعدما تزوجت كانت دائمًا ما تجد ما يحلُّ محلَّ الكعب العالي دون أن تضحي بجمال المظهر. بعدَ رحلة استمرَّت أسبوعين لمدينة زيورخ يعودُ زوجها، يرتفع صوته وهو يستحم بقوله: "أمّا مطار زيورخ، فكبير جدًّا، ومنمَّق، وراق جدًّا، بسّ احترت أجيب لك إيه، افتحي الشنطة كده". ردَّت: "لما تطلع، هروح أعملِ قهوة تكون خلَّصت". تقترب بصينية القهوة التركي تجاهَ غرفة نومهما حيث الكرسيّان اللذان يقضيان عليهما وقتَ الصباح المبكر قبلَ العمل في مشاهدة نشرات الأخبار، بينما يقف أمام المرآة يمشط شَعرَه تضع الصينيةَ على الطاولة بين الكرسيين، وتلتفت له، يلفت انتباهها كيسُ مخملي أسودُ كبير، وآخرُ أصغر منه على الفراش، تقول له: "إيه ده؟!".. "لقيت المحلّ ده في المطار، غالي صحيح بسّ ما يغلاش عليكِ، وأظنّ انتِ

قلتيلي حاجة عليه قبلٍ كده.. مش فاكر قويٍ، مامتك الله يرحمها كانت بتحبًّها، حاجة كده". تقدّمت نحو الفراش بحذرٍ وتردد، الأكياس السوداء المخملية مكتوب عليها الماركة بًالأحمر، لم تصدِّق عينيها، فتحتِ الكيسين؛ أحدهما به صندلُ أحمر بكَعب خشبي عالٍ، والآخر حقيبة يدٍ مناسبة له، الاثنان ماركة "بالي".

أخوكم فين؟!

سألتِ الأم الأولادَ الجالسين على طرابيزة السفرة يذاكرون: "أخوكم فين!؟"

ردّوا متفرِّقين: "منعرفش".. "كان قاعد هنا واختفى".. "ما شفتوش"

توجَّهت الأم لابنتها الكبرى بالحديث: "يعني أنا ما اعْرفش أنام نُص ساعة! أنتِ مش عارفة تخلّي بالك من اخواتك!"

ردَّت الابنة بوقاحةٍ ممزوجة بالملل: "يعني أعمل إيه... مش فاهمة!؟"

زغرتْ لها الأمُّ بغضب، وتوجَّهت للبلكون: "أمّ محمد.. أم محمد.."

خرجَ الأولاد وراء أمهم...

تناهى إلى سمعهم صوتُ البوّابة: "أيوه يا دكتورة"

"ما شفتيش عبد الله!؟"

"آه، نزل من قيمة شويَّة.. هوّ بيلعب دايمًا مع عيال في أول الشارع، اللي عندهم الكلاب"

"طيب شكرًا يا أم محمد"

"تؤمري يا دكتورة"

دخلوا جميعًا من البلكون.. الأمُّ تسير والأولادُ وراءها، دخلتِ الأم غرفتها والتفتتْ إليهم: "ممكن تسيبونى ألبس؟!"

وقفوا على باب الغرفة ورزعتِ الأمُّ الباب...

دقائقُ وخرجتِ الأم بعباءتها الحمراء ذاتِ الورود البنفسجية الصغيرة، وعليها إيشارب بنفسجي اللون يغطّي رأسها وينسدل على كتفيها. توجَّهت إلى باب الشقة، والأولادُ وراءها "ماما، أنتِ رايحة فين؟".. "رايحة أجيب أخوكم وهوّ لسَّه في الشارع، بدل ما يطلع منه وما نعرفش نجيبه".. "لا يا ماما ما تنزليش، هوّ هييجي".. "ماما، رجْلي على رجْلك، مش هسيبك تنزلي لوحدك".. "طيب يا فالحة كنت خدتِ بالك من أخوك الأول، واللّا حتّى كنت ردّيتِ عِدِل على أمك!".. "هيرجع يا ماما لوحده، ده نزل يلعب بس".. "يعني انتَ عارف إنه بينزل يلعب".. أطرقَ بوجهه في الأرض وهو يقول: "أيوه، كلّ يوم وانتُم نايمين العصر بينزل ويرجع قبل ما تصحو، أو يقول إنه كان في السطوح عند البط والوز والأرانب"

صمتتِ الأمُّ لوهلة غاضبة: "طيّب حسابكم معايا بعدين"

بينما تهمُّ الأم بفتح الباب يرنُّ الجرس، تفتح لتجدَ صغيرها أمامَ الباب، يفاجأَ بأمّه التي لا يفوتها مظهرُ ملابسه الممزقة، ولا وجهه الملطَّخ بالطين، وما إن همَّتِ الأم بنْهر الصغير الواقف أمامها، وبقيةُ الأولاد متحلقون حولها، حتَّى ارتمى في حضنها وهو يقبض على عباءتها بشدة، تحوَّل الزجر إلى.. "ما لك! فيه إيه؟! أنتَ راجع مبهدل ليه؟ حصل إيه!؟"

من بين دموعه: "سايس الجراج ضربني ورَمَاني على الأرض"

صرختِ الأم: "سايس أيِّ جراج؟"

"العمارة اللّي ساكن فيها أصحابي"

"ليه!؟ إيه اللي حصل!؟"

شرح الابنُ أنه كان يلعب مع أصدقائه وكلاب الشارع، وبعدما طلع الأصدقاء لشقتهم نهَرَه السايسِ وقال له إنَّه يشجع الكلاب على المجيء للمنطقة، فلمّا رد عليه أنَّ الكلاب كائنات طيبة ضربَه، وحاول سحبَه لغرفته، فقاوم الطفل وركلَ السايسِ فسقطَ أرضًا، استجمع قوتِه ووقفَ وأخذ يسبُّه، ثمّ عاد إلى المنزل ركضا. احمرّ وجه الأم احمرارًا شديدًا وقالت: "طيب".

توجَّهت إلى المطبخ أمسكتْ بالمقشة البلاستيكية، فكَّت يدها الحديدية، وأمسكت بها بيدٍ، وبالصغير باليدِ الأخرى: "تعال معايا"

"ماما ما تنزليش، استنّي بابا"

"يا تيجي معانا يا تسكتِي خالص"

"هاجي معاكم"

نزلوا ثلاثتهم، بينما ظلَّ بقية الأولاد في المنزل.

سألت الأمُّ ابنها عن المكان، بينما يسيرون في الطريق انضمَّ إليهم بعض بوّابي العمارات ممَّن يعرفونهم في الشارع دون أن يعلموا السبب، ولكن مظهرُ الأمِّ بالعباءة والعصابة أنبأ بوجود أمرٍ كبير. ساد الصمتُ الذي تقطعه أحيانًا كلمات مثل.. "خير يا دكتورة؟".. "خير".. "فيه إيه يا دكتورة؟".. "كلّ خير"...

وصلوا إلى العمارة المعنية، شاور لها ابنها علي السايس الذي كان جالسا على مدخل الجراج على كرسي خشبي يشرب كباية شاي، انتبه لهم فألق الكوب على الأرض وحاول الركض، في قفزة واحدة من الأم أمسكت بتلابيبه ورفعت العصاية وفي لمح البصر نزلت بيها عليه ضربا، تقدم البوابون الآخرون وأخذوا يضربونه وهم يقولون " عنك يا دكتورة.." ناولت الأم إبنها العصاية وهي تقول له "اضرب"، تناول الولد العصاية، وأخذ يضرِب بها السايسِ معّ البوّابين. قالت الأم: "كفاية". فتوقّف الجميع وتوجهت الأم للسايس بالكلام: "أبوه له كلام تاني مع صاحب العمارة، يا متحرش يا قذر". غادرتِ الأم، بينما ابنها يمسكُ العصاية بيد ويمسك يدَ الأم بكَفِّه الأخرى وهو ينظر إليها بفخرٍ وعزّة غير فاهما ما هي كَلمة "متحرش" التي قالتها الأمّ، تسير بجوارهما الابنة وقد أدهشتها قدرةُ أمها.

في المساء، جاء صاحبُ العمارة التي بعمل بها السايس، انفردَ به الأب في غرفةِ مكتبه وشرحَ لِه ما حدث وأنَّ ربنا ستر، قال الرجل إنَّ السايس يصرّ أنه ضربه فقط، مع تأكيد الأب على ما حدث.. فهمَ صاحبُ العمارة ما كان يحاول السايس معِ الصغير، والأب يوصله للباب أكّد الرجل على أنّ السايس "هيلمّ هدومه ويمشي بعد العلقة الساخنة اللّي اديتهاله الدكتورة، مفيش داعي لأيّ تصرف آخر عشان الشّوشرة".. يهزّ الأب رأسه موافقًا.

بعدَ انصراف الضيف يتوجّه الأب لغرفة الجلوس

مبتسمًا ويحتضن الصغير. يجلس مع زوجته وأبنائه وهو يقول: "أمكم صعيدية بجدّ! ماحدش ينفع ييجي جنب أولادها".

تجلس الأم على الكنبة محمرَّة الوجه ومُبتسمة، غير مولية للأمر أيَّ أهمية تُذكر، بينما قلبها يخفق وهي تحمد الله على أن ابنها هرب من الرجل قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه، واستمرت في تقشير البرتقال للجميع.

الشقة

فتحتِ الأم عينيها ببطء وهي تشعرُ بحركته في الغرفة، أخذتْ تراقبه وهو يتحرَّك بسرعةٍ كعادته. يخرج من الأدراج ملابسه الداخلية، ويضعُها على الدولاب القصير، يُخرج بدلة الجيش ويقوم بالحركة التي يقوم بها منذُ 15 سنة من زواجهم، يربِت على الكتف الأيمن للبدلة. مازالت صامتةً تراقب، يدخل الحمام، يأخذ حمامَه اليومي ويَخرج لافًّا نفسَه بالبشكير الأخضر الخشن المفضَّل لديه، يرتدي ملابسَه مسرعًا، يسرِّح شَعره بعناية، ويتقدَّم نحوها، تُغلق الأم عينيها متصنِعة النوم، يقترب منها.. يقبِّلها قبلةً خفيفة، تفتح عينيها، تنظر إلى عينيه العسلية التي تعشق: "أنتَ نازل على طول كده..."

"أيوه يا حبيبتي يا (تمتم).. عايزه حاجة؟"

"أبدًا. ربنا يخليك"

"أنا نزِّلت الأولاد ركبوا الباص وهيرجعوا في معادهم..."

قاطعته وهي تردِّد معه في نفس الوقت: "ما نتأخَّريش عليهم عشان الباص ما ينزِّلهمش لوحدهم..."

ضحكَا معًا وقبَّلها هذه المرَّة قبلةً أطول، قامتِ الأم ونزلت معه على السلم حيث يلفُّ ذراعه حولَ خصرها حتَّى وصلا للدور الأول في الدوبلكس الذي يعيشان فيه في آخرِ دور في العمارة. خرج وهو يقول: "لا إله إلا الله".. أغلقت الأم البابَ وهي تقول: "محمد رسول

الله". ركضت لتنظرَ من البلكون العريض الذي يأخذ نصفَ مساحة سطوح العمارة بينما يأخذ الدوبلكس النصفَ الآخر، لوَّحت له مودّعة بينما هو يركب سيارته الفيات الخضراء الـ 128، لوَّح هو لها كعادته بالكاب العسكري.

أغلقتِ الأم بابَ البلكون وركضتْ مُسرعة على السلالمِ الداخلية، دخلت غرفتها، بدَّلت ملابسها على عجل، رتَّبت سريرهما، دخلت غرفة أولادهم رتَّبت السرير الدورين بسرعة، تذكرت أنَّها نسيت تسريحَ شَعرها، دخلت مرة أخرى غرفتها بسرعة، مشَّطت شعرها القصير وارتدت حلقًا مستديرًا، تناولت حقيبتها، ركضت علىِ السلالم نزولًا، فتحت الباب وخرجت، أغلقت البابَ وراءها.

على باب العمارة أوقفت الأمُّ تاكسي: "شارع الطيران يا أسطي؟".. "اتفضَّلي يا مدام".

أشارتْ له أن يقف قبلَ كنتاكِي بقليل حيث يقع مكتبُ أخيها الهندسي، ناولته بضع جنيهات ونزلت، ركبت الأسانسير، وصل للدور الرابع حيث المكتب. ابتسمت السكرتيرة عندَ رؤيتها وقالت: "أهلًا يا فندم".. "الدكتور محمود موجود؟".. "أيوه، اتفضَّلي يا فندم.. هدِّيله خبر".

دخلتِ السكرتيرة وتعمَّدت هي أن لا تلحقها، خرجتَ السكرتيرة وفي أعقابها أخوها الكبير محمود بوجهِه الأسمر الحبيب، وعينيْه اللتيْن لا يفارقهما الودُّ والحنان: "(تمتم) حبيبتي، إيه المفاجأة الحلوة دي!. ده

أنا كنت هعدّي عليكِ أشرب شاي معاكِ النهارده".
قالت وهي تحتضنه: "أهو أنا سبقتك كالعادة..".
أحاطها بذراعه وقادَها داخل مكتبه.

بادرته بقولها: "عايزاك في موضوع مهمّ.. وسرِّي جدًّا"

"لا كده نقعد في الصالون بقى.. تعالي".

شرحتْ له أنَّ شغل زوجها هيبني شققًا جديدة في الجزء الشمالي من مدينة نصر، وأنَّ مقدمها 10 آلاف جنيه، والباقي قسط 200 جنيه في الشهر على عشر سنوات، وهو ليس معه المبلغ، ولا يريد أن يستعير من أيِّ شخص، وأنها تريد أن تأخذَهم منه وتسدِّدها له على أقساط. ابتسم أخوها وقام من كرسيه، توجَّه إلى المكتبة الكبيرة، أزاح بعضَ الكتب، ظهرت الخزانة، فتحها، تناول رُزمتين نقديتين، أغلق الخزانة، أعادَ الكتب مكانها، وتوجَّه حيث تجلس، ناول الأُمَّ الرُّزم وهو يقول: "اتفضَّلي يا ستي.. بسّ والفلوس معاكِ نتكلم، ممدوح ابن عمي وراجل محترم، والسلف أو حتى الهدية هتضايقوا.. فلازم تبقي عارفة كده كويس".. "عارفة. ووالله أنا مش عايزه الشقة دي فشخرة ولا دياولوا، هوّ مهندس قولّي لما هيطلع من الجيش هيروح فين؟ الشقة دي هتبقى مكتبُه، أو شقة ابننا أو حتى شقتنا لما يتقطع نفسنا من شقة الدور الأخير وسلِّم الدوبلكس".. "كلامك صح يا تمتم.. بسّ زوجك مش هيقبَل ده بسهولة، فلازم تخني للعاصفة لحدّ ما تعدي.. مهما كانت شروطه.. فاهماني؟".. "حاضر يا أبيه محمود.. حاضر والله أنا فاهمة.. هروح دلوقت أدفع في الجهاز، ودي

فلوس لا تردّ وهدّيله الإيصال لما يرجع.. ربنا يستر".. "لو عايزاني أكلمه ممكن....".. "إلا دي.. مش هيسمح لحدّ يتدخل.. ولو سامحني إني استلفت مش هيسامحني إني بدخَّل حد.. ما انت عارف!". ضحك وهو يعقب: "هتقوليلي.. كلّنا هذا الرجل".

قامت وهي تقول: "هنزل عشان ألحقِ الخزانة، هنشوفكم الجمعة عند ماما على الغدا.. المرَّة دي سمك!؟".. "أنا جاي بإذن الله، بسّ أسماء والعيال في بورسعيد آخر الأسبوع، الولاد عايزين شوية حاجات مستوردة، فقلت أريَّح مخي وابعتهم مع أمهم...". ضحكت وهي تحضنه، قال لها مودِّعًا: "أنا بالمناسبة مش عايز الفلوس دي تاني.. يسدِّدلك وانتِ اعتبريهم هدية".. "يا أبيه، ده كتير.."

"امشي يا بت.. بلاش لماضة".

حضنته.. وغادرت...

نزلت السلالم مسرعة...

قفزت في تاكسي...

توجَّهت إلى إدارة شئون الضباط...

سألت عن الإدارة المختصة بالمشروع...

قبلَ أن تدفع كان عليها أن تختارَ الشقة التي تريد...

قالت للمهندس: "أيّ حاجة، بسّ بحري.. ويكون فيها أسانسير.. وهاخد الثلاث غُرف".. "كلهم يا فندم بأسانسير".

اختارت ودفعت، وعلمت أنَّ القسط 150 جنيه على عشْر سنوات.

خرجت وهي تستنشق هواءَ الشتاء بعمق، وتقبض بقوَّة على الظرف الذي يحْوي الأوراق.

وصلتْ منزلها على موعد الأولاد بالضبط...

وقفتْ تنتظر الباص...

نزلوا وهُم يصرخون كعادتهم: "ماما.. ماما". استقبلتهم بالأحضان والقُبلات. حملت حقيبةَ الصغيرة بينما الصغيرُ حمل حقيبته، صعدوا الخمسة أدوار.. وهي تفتح الباب كانت تلهث.

رموا حقائبهم بجوار الباب كالعادة، وتساءل الصغير وهو يتوجَّه إلى المطبخ: "الغدا إيه؟!"

ردَّت: "النهارده الأحد، وفي اليوم المفتوح اتْفرجوا على الفيلم لحدّ ما أجهِز الغداء..." ضربَ بوزه فورًا وهو يقول: "عايز تصبيرة".. "فيه بقلاوة.. تنفع؟!"

هتفتِ الصغيرة: "طبعًا. ماما ملكة البقلاوة".

بينما هي بملابس الخروج دخلتِ المطبخ، وضعتْ حقيبتها وظرفَ الأوراق على كرسي صغير أمامَ المطبخ، وضعت لكلِّ طفل قطعتي بقلاوة في الطبق، خرجت لتجدَهم ممددين على الأرض أمام التلفزيون الأبيض وأسود، وبرامج اليوم المفتوح تعرض. وضعت الأطباق أمامهم وهي تقول: "ولا فرفوتة على الأرض"

ردَّا معًا: "حاضر يا ماما.."

دخلتِ المطبخ، حمَّرت كبدة من التي يحبُّها الزوج، معَ طاجن أرزٍ في الفرن، وطاجن بامية صغير في الفرن، لا تحبُّ أن يبيت الأكل.. فتصنع كمياتٍ صغيرةً كي لا يبقى شيٍء. تركتِ الطواجن في الفرنَ، وغطَّت الكبدة المحمَّرة بالغطاء المعدني الشبك المستدير. أخرجت من درج الثلاجة الطماطم والخيار، غسلتهم ولفَّتهم بالفوطة وتركتهم على طاولة المطبخ.

خرجتْ إلى الصالة، وجدتِ الأولاد نائمين، صعدتْ للدور الثاني، أتتْ بأغطية خفيفة، فردتْها عليهم، بينما تفعل سمعتْ صوتَ أقدام زوجها على السلمٍ، توجَّهت إلى الباب وهو يفتح، وقالتِ له همسًا وهي تشير حيث الأولاد: "ششش نايمين.. تغيَّر ونصحِّيهم عشان نتغدي سوا".

صعدَ الأب للدور الثاني بينما بدأتْ هي تحضيرَ السفرة، أيقظتِ الأولاد حال نزول الأب.

تناولوا الغداء، يسأل الزوج: "أنتِ نزلت النهارده؟ شايف هدومك على السريرا".. "ما أنا بنزل كلّ يوم أجيب الأولاد".. "أيوه، مشٍ بكامل الشياكةا".. "عديت على أبيه محمود".. "خيرا؟".. "هقولَّك واحنا بنشرب الشاي". أنهوا الغداء، دفعتِ الأولاد دفعًا إلى الدور الثاني ليغيِّروا ملابسهم ويغتسلوا ويستعدّوا للمذاكرة.

لَّم كلٌّ من الأب والأم السفرة، تركها الأبُ في المطبخ وخرج إلى الصالة، رتَّب الأغطية التي تركها الأولاد مبعثرة، وضعها على جنب، أتى بالطاولة

الصغيرة وضعَها بجواره، جلس على الكنبة ومدَّد قدميه على الكرسي الصغير، أخذ يتابع بقيةَ الفيلم العربي الذي كان في نهايته، شاطئ الغرام لليلى مراد.

أتتْ بالشاي، كوبين، وبجوارهما طبقٌ صغير به بقلاوة، وضعتِ الصينية على الطاولة، ناولته كوبَه، جلست بجواره وبدأت تشرب، بادرها: "هه.. رُحت لأبيه محمود ليه؟"

أخبرتْه بالقصة كاملة.. لم ينطق حرفًا...

وضعَ كوبَ الشاي على الطاولة.. صعد السلالم.. وقفت للِّحاق به ثمَّ تراجعت...

نزلَ وقد ارتدى ملابس الخروج، خرجَ دون كلمة وأغلق الباب وراءه بقوة.

ذاكرتِ الأم للاولاد، عشَّتهم ثمَّ وضعتهم في الفراش.

مدَّدت في السرير، فتحت المصحفَ، وجدت العلامة عندَ سورة الممتحنة، قرأتها، أغلقته، واستغرقتْ في النوم دون أن تشعر...

استيقظت علي صوت زوجها: "بكره الصبح تروحي لأخوكِ تدّيله الظرف ده.. ديي فلوسه"

"جبتها منين؟"

"بعت العربية"

"هوّ مش عايزها.. قالي آخدها"

نظرَ بحزم وقال: "هيّ كلمة واحدة، الفلوس ترجع لأخوكِ الصبح"

"أنت هتروح الشغل ازّاي!؟"

"مش شغلك"...

أخذَ البيجامة، ومخدّاته وغطاءً من الدولاب ونزل. افترش الكنبة ونام. بعدَ قليل تسلّلت على السلالم، طلّت عليه وجدته يغطُّ في نوم عميق.. صعدت إلى غرفتها ونامت.

صباحًا، توجَّهت إلى مكتب أخيها، عرفتْ أنه مسافر ويعود الخميس، أبقتِ النقود معها ليوم الجمعة حيث يجتمعون على الغداء عند أمها.

استمرَّ زوجها يفترش الكنبة، ولا يتبادل معها أيَّ كلمة حتَّى كان يوم الجمعة، بينما يعيدُ مخداته والغطاء لغرفة نومهم بادرته: "مش هتيجي معانا الغدا النهارده؟".. "رجَّعت الفلوس لأخوكِ؟".. "هرجَّعهاله النهارده، كان في المنيا اليومين اللي فاتوا". ردَّ متجنِّبًا النظر إليها: "مش هقدر آجي الغدا.. سلّمي عليهم".

بعد أن حكتْ لأخيها وهي تُعطيه ظرفَ الفلوس، قال لها: "أنا قلتلك دول بتوعك".. "مش هينفع والله يا أبيه.. معلش.. أنتَ فاهم".. "المهم إنكم دفعتم المقدم...".

غادرتْ والأولاد إلى منزلهم، صعدوا الدرج.. ووقفت تلهثُ للحظة قبل أن تدخل المفتاح في الباب.

ركضَ الأولاد على أبيهم الذي يفترش الكنبة، بينما صعدتْ هي إلى الدور العلوي، بعد أن أنهتْ تجهيزاتها نادت عليهم ليستحموا و يناموا.

سادَ الهدوء المنزل، تسلَّلت بهدوء على السلم، توجَّهت إلى الكنبة حيث ينام زوجها وهو يقرأ، جلستْ على ركبتيها بجوار الكنبة، وقالت له: "مش هتسامحني بقى؟"

نظرَ إليها مطوَّلًا، ثمَّ قال: "مسامحك. بسّ ما يتكررش.. اللي نتِّفق عليه يتعمل، مش تروحي من ورايا تعملي حاجة تانية!".. "والله ما كانت كده، أنا آسفة.. حقَّك علي، الفلوس رجعت لصحابها على أي حال، كلهم سألوا عليك النهارده".. "هنشوفهم بإذن الله الجمعة الجاية".. "طب قوم نام في سريرك".

حملَا معًا المخداتِ والغطاء، رتَّبت الكنبة بسرعة.

صعدَا متجاورين على السلم...

في آخرِ العام، أعلنِ الجيش عن سيارات مازدا بالتقسيط، ودون مقدَّم لأفراده، اشتروا مازدا حمراء اللون.

***

بعدَ عشرين سنة، كانت الأم تلفُّ على الأنوارِ تطفئها وتلملمُ بقايا عزومة الإفطار العائلي الذي تعدُّه كلَّ وقفة عيد كبير. أخذت تنظر لجوانب الشقة التي انتقلت إليها تاركةً الدوبلكس لابنها وعروسته بعدَ وفاة زوجها وإغلاق مكتبه الهندسي الذي احتلَّها لسنوات. نظرت لصورته على البوفيه بجوار تمثال النمر الخشبي المصنوع من خشب الورد.. دمعت عيناها وهي تتمتم: "الله يرحمك يا حبيبي..."

تراقبها ابنتُها بصمت، تقوم من على الكنبة تاركةً

رضيعها نائمًا عليها، تحتضن أمَّها من ظهرها وتقبِّل رأسها.

القسم

تُحكم الأم لفَّ الشال حول كتفيها، الشتاء قارصٌ هذا العام، بينما تتَّجه إلى المطبخ لتصنع كوبَ شايٍ يساعدها على التدفئة في هذا الشتاء الشديد، تدخلِ يديها في جيوبِ الروب القطيفة النِّبيتي الطويل الذي أهداها إياه زوجُها من آخر سفرية له لليونان.

تزوَّج الأبناء وسكنوا معهم في ذاتِ العمارة ما عدا ثالثهم، الذي لم يتزوج بعد، ويسكن معهمِ في ذات الشقة. آخر العنقود، مازال في الخارج معَ أصدقائه، قال لها وهوِ نازل: "سهرانين في المنتزه انهارده".. "ربنا يحفظك انتَ واللّي زيك يا ابني". الأب في مكتبِه الذي يقع في نفسِ العمارة في الدوِر الأرضي، سيتأَّخر اليوم، فلديه مركبٌ بالميناء بها عدةُ مشاكل، وعليه أن يتابع الأمر بنفسه.

فتحتِ الأم بابَ المطبخ الأوكرديون، فتحت النور، ودلفتْ إلى المطبخ، تناولت كوبًا زجاجيًّا، فتحت الصنبور، عايرت كوبًا وصبَّته في براد الشاي الصاج المطلي بالأبيض، ومرسوم عليه ورودُ حمراء بيدٍ خشبية فاتحة، عايرت نصفَ كوب آخر وزادته علَى ما في البراد، غطت البراد، تناولت الكبريت.. ثمَّ ابتسمت وهيِ تضعُه مكانه، البوتاجاز الجديد به إشعالُ ذاتي، شحنه مخصوص زوجُها من إيطاليا، الأول في الأسرة، دائمًا ما يدلِّلها الأب بكلِّ جديد وحديث. أشعلت النارَ ووضعتِ البراد على النار، بينما المياه تسخن تفتح دولابَ المشروبات والبهار، تبدِّل رأيها وتسحب

برطمانَ القرفة، تفتحه، تعاير مقدارَ ملعقة، تضعها في الكوب وتصبُّ المياه، يضرب جرسُ التلفون، تترك ما في يدها وتذهب لترد: "آلو..".. " أيوه يا طنط، أنا حسام".. "أهلًا يا ابني.. صاحبك نزل من بدري".. "لا أنا مش عايزه يا طنط، أنا عايز عمي...".. "في المينا، أو في المكتب يا حبيبي.. فيك حاجة؟ أبلَّغه حاجة!؟".. "شكرًا يا طنط، هحاول أطلبُه في المكتب". أغلقت الأمُّ الخطَّ وركضت إلى المطبخ، تنفَّست الصعداء.. لوهلة ظنَّت أنها تركت النار مفتوحة، ولكن تبيَّنت أنها أغلقتها قبلَ أن تغادر للرد على الهاتف. تكمل صبَّ المياه المغلية على القرفة، تضعُ الملعقة في الحوض، ترجع تمسكُ بالملعقة وتفتح المياه عليها تشطفُها بعناية، ثمَّ تضعها في الصفاية، تكره بقاءَ أي مواعين في الحوض.

تتَّجه الأم لغرفة الجلوس، تشغل التلفاز، موعدُ عرضِ المسلسل الساعة 8، قبل نشرة الأخبار، ليس مسلسلًا جديدًا وإنما معاد، لكنه شيق جدًّا.

تشاهد الأم المسلسل، معَ انتهائه تتَّصل بزوجها في المكتب لا يرد، تتَّصل بولدها الكبير تحكي له عن مكالمة حسام فيردّ: "خير.. خير بإذن الله".. "وكمان أبوك اتأخَّر.. أنا قلقانة، ما تنزل تشوفه".. "نزلت من شوية وما كنش فيه حدّ في المكتب"...

بعدَ قليل اتَّصلت الأم بابنتها، التي قاطعتها قائلة: "طب هطلعلك يا ماما شوية، الولاد ناموا، ونادر بيتفرَّج على ماتش متعاد"..

تُغلق الأم الخطَّ وتتجه إلى الصالة ترقبًا لخطوات ابنتها.

تسمع صوتَ الأسانسير ثمَّ الخطوات، تفتح البابَ دون أن تنظر في العين السحرية، تنظرُ لابنتها بعيون قلقة: "لازم يرجعوا بقى، مش كده".. "ما تقلقيش يا ماما، هيّ دي أول مرة يتأخروا! ما انتِ عارفة ابنك وجوزك. تعالي نشرب شاي مع بعض".. "لسَّه شاربة قرفة موَّعتلي نِفسي".. "طب يبقى نعمل سندوتشين جبنة بيضة مع كبايةِ شاي". لم تنتظر الابنة إجابةَ الأم، دخلتِ المطبخ وجهَّزت المطلوب واتجهتْ به إلى غرفة الجلوس الداخلية التي كانت غرفةَ نومها قبل أن تتزوَّج وأصبحت غرفة التلفاز بعد زواجها.

جلستِ الابنة بجوار الأم، ووضعت الصينية أمامهما على طاولة النصف، بينما تهمُّ الأم بشرب الشاي بلبن سمعا صوتَ مفتاح الأب في الباب، هرِعتا إليه وبادرته الأم: "إتأخَّرت كده ليه؟ أنا قلقت عليك.. سامح كلّمك من شوية صاحب ابنك".. "خير يا حاجة، خليني آخد نَفسي.. دي مش أوّل مرة أتأخَّر يعني! وأيوه سامح كلمني...".. "خير! فيه حاجة؟". تجاهل الأب السؤال ونظر لابنته: "سعادتك بتعملي إيه هنا دلوقت!؟ يالّا على بيتك الوقت اتأخَّر، ما تسيبيش جوزك لوحده".. "حاضر يا بابا". قالت الأم: "طب سيبها تكمِّل الشاي". قال الأب: "يبقى من نصيبي بقى". خرجت الإبنة بعد أن قبَّلت أباها وأمها.

توجَّه الأب إلى غرفة النوم، لحقته الأم وهي تقول: "سامح كان عايز إيه!؟"

" كلام فارغ... شغل عيال..."

" أيوه، يعني فيه إيه؟!"

" بقولك إيه.. حضَّرِيلي لقمة آكلها.. أنا خلصان.. في سمك من بتاع امبارح!؟".. "أيوه فيه، بسّ فيه أكل طازة".. "لأ أنا عايز البايت".. "اللّي يريحك". وهي في طريقها إلى المطبخ أخذت الشاي باللبن وساندوتشات الجبن من غرفة التلفزيون.

غيَّر الأبُ ملابسه، ارتدى بيجامة شتوية ثقيلة، دخلَ الحمام، توضَّأ ثمَّ ارتدى فوق البيجامة عباءته البيج الجملي.

دخلَ غرفة التلفزيون، وقبلَ أن يجلس على كرسيِّه الهزاز، شغَّل القناة الثانية حيث يعرض فيلم أجنبي.

جاءتِ الأمُّ بالصينية عليها الطعام.. "تسلم إيديكِ". تناول الأبُ منها الصينية.. بدأ يأكل، وبينَ اللقمة والأخرى يحدِّثها عن الميناء وما حدث من مشاكل اليوم.

انتهى الأبُ منِ تناول طعامه، وبينما يقف ليرفع الصينية تقف الأمّ وتتناولها منه وهي تسأل: "تشرب شاي!؟".. "أشرب، بسّ سخنيلي شاي بنتك ما تعمليش جديد".. "دي قلة مزاج يا شيخ!".. "أنا يا ستي مزاجي كده". ذهبَ لغسل يديه بينما توجَّهت الأم بالصينية إلى المطبخ، وضعتْ كلَّ شيء في مكانه، فرَّغت الشاي بلبن في اللبانة.. سخَّنته، ثمَّ صبت كوبًا للأب، ولها كوب آخر، وضعتِ اللبانة في الحوض وملأتها بالمياه، ثمَّ حركتها إلى ركن الحوض.

عادتِ الأم بالشاي باللبن إلى غرفة التلفزيون،

وهي تجلس قالت: "ابنك اتأخَّر قوي.. هوَّ سامح كان عايز إيه؟ أنتَ ما قلتليش!".. "هوّ ما أتأخَّرش، هوّ مش جاي النهارده..".. "مين ده اللي مش جاي النهارده!؟".. "ابنك".. "ليه كفلًّا الشر، ما تقلش كده، ربنا يرجعه بالسلامة".. " مفيش شرّ ولا حاجة، هوّ أصله هيبات برَّه".. "يعني إيه! عمره ما عملها.. هيبات فين؟".. "في القسم". شهقت الأُم وهي تقف وتقول: "قسم.. قسم إيه؟! حرام عليك ما تنقَّطنيش بالكلام! قلّي الحكاية كلها".. "اقعدي بس.. اقعدي. سامح يا ستي كلمني لأن البهوات المحترمين اتْخانقوا في الشارع، فالبوليس لَمِّ العيال اللي في الخناقة كلهم، الوحيد اللي هرب كان سامح، وخدوا العيال على قسم المنتزه، سامح لما كلِّمني طبعًا عدِّيت علي محمود اللبان المحامي، خدته وجري على القسم، الضابط كان محترم جدًّا، وطلع أبوه دفعتي في البحرية بسّ لسَّه في الخدمة، طلبلي أبوه واتكلمنا في التلفون...". قاطعته الأم: "أبوه إيه وابنه إيه! أنا ابني فين!؟".. "ما أنا جيلك في الكلام أهه. المهم الراجل قال الموضوع بسيط، وكلّ الآباء كانوا هناك، والضابط قال خدوهم، ده طيش شباب، وأنا شاب زيهم وعارف. إحنا ما رضيناش إلا أب واحد خِرِج خد ابنه ومشي".. "ما رضيتوش يعني إيه!؟ هيعملوا في ابني حاجة؟ إزاي ما ترضاش! حرام عليك".. "العيال كويسة وما دخلوهمش حجز، ومبيِّتينهم في غرفة المأمور، وأنا كلمت مساعد مدير الأمن وصِّيت عليهم".. "وصِّيت عليهم بدل ما تطلَّعه وتجيبهولي في إيدك تقولي وصيت! إحنا ننزل دلوقت نجيبه".. "اسمعيني كويس..

مش هننزل نجيب حدّ، والواد ده هيبات في القسم.. ومعاه كلّ صحابه.. كده هياخدوا درس عُمرهم ما هينسوه، ومش هنسمع عن حدّ منهم اتخانق في الشارع تاني، النهارده أنا عايش.. بكره لما أموت هيعمل إيه مين هيطلعه، واللّا مين هيوصي عليه! طبْ حظنا وقَّعنا في ظابط ابن ناس، لو كان غير كده كان إيه اللي حصل؟ ميت مرة قلت مفيش خِناق في الشارع.. ميت مرَّة. الموضوع انتهى كده.. أنا داخل أنام.. بكرَه أصلي الفجر ونروح نجيبه قبل الضابط ده ما يخلص نبطشيته".

دخل الأب لينام.

اتَّصلت الأم بابنتها حكتْ لها بين دموعها، ردت الابنة: "ماما، أنتِ عارفة بابا! ده مصنع رجال لوحدُه، فاكره لمّا ودّاهم رحلة لإيطاليا وطلعوا في الآخر رايحين ينظَّفوا الحمامات في المركب! مفيش حل.. استنّي للصبح.. بِسّ اهدي كده.. سبَّحي". أغلقت الأم الخطَّ وتوجّهت إلى غرفة ابنها، عندما فتحتها لم تمالكْ دموعها، التي سالت بلا توقُّف، حضنت روبَ ابنها المعلَّق علي الشماعة الخشبية ذات الرؤوس المستديرة ونامتْ في فراشه وهي تبكي وتهاجمها كلُّ الأفكار السيئة، بينما تمتم: "ربنا يستر.. ألطفْ يالّلي بتلطف". استغرقت في النوم دون أن تشعر على فراشه. استيقظت على صوت الأذان من المسجد المجاور للمنزل، هبَّت من الفراش، دخلت الحمام بسرعة.. توضَّأت وصلَّت، دخلت المطبخ، غلتِ المياه في البراد، غسلتِ اللبانة بسرعة، ووضعت فيها اللبن وسخَّنته، جهزت الشايَ باللبن ووضعت في طبقٍ قرقوشتين بالينسون.

دخلتْ غرفة نومها، فتحت النور، وضعتِ الصينية علي الشوفينرة، ربَّتت على كتف زوجها: "صباح الخير".. "صباح الخير".. "يلّا عشان ما نتأخَّرش.. هلبس وآجي معاك".. "ده كلام! طبعا لأ. محمود اللبان مستنّيني هكلِّمه قبل ما أنزل.. استني انت ابنك.. نمتِ واللّا ما عرفتيشِ؟!".. "حدّ يعرف ينام في الظروف دي! ربنا يستر". ربت على كتفها مهوِّنًا.

دخلَ الأب الحمام، توضأ، خرجَ.. صلى، ارتدى ملابسه بسرعة، وعلَّق البيجامة فوق العباية التي خلعها قبلَ نومه، تناول رشفتين من كوب الشاي وتناول قرقوشةً واحدة واتَّجه ناحية الباب، والأمُّ في أعقابه مردِّدة: "أنا عايزه ابني النهارده، ولا تقولّي كاني ولا ماني.. ولو على التربية عنّه ما اتربَّى، بسّ ربنا يسلمه".. "ما هو مش هيسلِّمه من غير تربية!". ضحك وهو يغلق الباب خلفَه.

***

بينما انحنى الابنُ ليمسك بقدمي أمِّه المتورمتين مساعدًا لها لرفعهما على الكرسي الصغير الناعم في شرفة بيته المطلِّ على البحر في مارينا الذي اشتراه بعد أن وفِّق في صفقة بيع الخشب الأخيرة، تبتسم وتربِّت علي كفه برضًا. ينصرف إلى داخلِ المنزل بينما تراقب الأمُّ أولاده الأربعة الصغار وهم يلعبون في الحديقة بالمايوهات، فتقول: "خشّوا البسوا الأوّل.. هتاخدوا لطشة برد.. ربنا يحفظكم انتم واللّي زيكم". يقوم الأب من كرسيِّه، يتقدم نحو الأم ويهمس في أذنها باسمًا: "يا

زين ما ربّيتِ يا حاجّة"....

تلتفتُ له الأم، ترفع حاجبيها علامةَ التعجب، وتبتسم بفخرٍ، بينما يركض نحوَها الحفيدُ الصغير محتضناً لها وهو بملابس السباحة المبتلّة.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

العريس

استيقظتِ الأم بهمَّة كالعادة، لديها يومٌ طويل. قامتْ من على السرير، توجَّهت إلى الشماعة الطويلة التي تعلق عليها روبَها الشتوي، لبسته وذهبتْ إلى الحمام وهي تحاول ألّا تُحدث أيَّ ضجة كي لا توقِظ الأب. سارت بعد ذلك إلى الصالة حيث التلفزيون، فتحتِ الجهاز على القناة الإخبارية، خفضَتِ الصوت تمامًا، تناولت طرحةَ الصلاة من على يدِ الكرسي الخشبية، لبستْها وصلَّت الفجر. يؤذن الفجر في الخامسة والنصف مما يُعطيهم وقتًا أطولَ للنوم وللصلاة قبلَ الشروق. نزعت الطرحة عن رأسها وبينما مازالت تتم تسبيحاتها دخلت المطبخ، أخذت الكنكةَ الكبيرة، ووضعت مقدارَ فنجانين من البُن وصبَّت فوقه الماء، وضعتها على النار بينما تعدُّ الصينية، صبَّت القهوة في الفناجين وهمَّت بالمغادرة، تراجعت خطوتين وضغطتْ على زرِّ الغلاية الكهرباء، غادرت وأغلقت النور.

وضعتِ الأم الصينية على الطاولة بجوار الكنبة، واتَّجهت إلى غرفة النوم، ربتّت على كتف الأب بلطف: "قوم يا حبيبي.. القهوة جاهزة". يقوم الأب يُمسك بكفِّها ويرفعها لفمه مقبِّلًا بحنان، تبتسم بحبور، تسبقه الأمُّ للصالة وتأخذ روبه معها، يتَّجه إلى الحمام، يخرج بعد قليل ويهتفُ في الطرقة: "يلّا يا بنات.. يلّا.. ماما غلتِ الميّه"...

قبلَ أن يهمَّ بالصلاة سألته الأم: "عرفت منين إني غليتِ الميّه!؟". نظر إليها نظرتَه الطيبة، ابتسم ورفع كفَّيه

مكبّرًا.

أنهى الصلاة وتناول الروبَ الموضوع على الكنبة، ارتداه وربطَه بإحكام، اتخذ مجلسَه بجوار الأم على الكنبة، شربَا القهوة أمام التلفزيون، بينما انشغلتِ البنات في طقوس الاستيقاظ، والاستعدادِ للنزول. ثلاثُ بنات يتقاسمن غرفةَ النوم الثانية بالبيت، قامت الأم وقالت: "هلبس وانزل بقى". ردَّ الأب: "ما تنسيش معادنا بالليل".. "وده يتنسي.. ربنا يكتبلها الخير هي وأخواتها ويسعدهم يا رب". عقّب الأب: "اللي فيه الخير يقدّمه ربنا". قالت: "أنا وصّيت على جاتوه سواريه من (مانا) ناخده معانا واحْنا رايحين".. "طيب، خير ما فعلتِ".. "أنا هتأخر في الشغل، وبعدين أعدّي عليها آخدها من الشغل ونتقابل تحت بيت جوجو ونطلع سوا".. "مش هتبقي عايزه ترتاحي شوية!؟".. "مفيش وقت، المعاد 6، يدوبك نلحق".. "طيّب اللي يريحك. أعدّي أجيب الجاتوه أنا؟".. "أيوه والله يا ريت، وما تنساش توصّي على علب الآيس كريم، عندي طلبيَّة كبيرة النهارده".

سارتِ الأم تجاهَ غرفة البنات، فتحت البابَ لتصرخ أصغرهن: "ماما! خضتيني".. "مين يعني اللي هيفتح عليكم الساعة 7 الصبح! صباح الخير يا بنات". تجمّعن حولها مقبّلين وحاضنين، عدا كبراهن التي كانت تقف أمامَ المرآة لتستعد للخروج. أكّدت الأم على كبرى البنات موعدَ وترتيبات المساء، بينما قالت للبنتين الآخريين: "ما تستنّوناش على الغداء، الأكل محطوط في

التلاجة. سخّنوا على قدّكم وكُلُوا لما ترجعوا من الجامعة". عقَّبت الصغري بدلال: "ممكن آجي معاكم معاد بالليل؟". اندفعت الكبرى قائلة: "طبعا لأ...". تركتهنّ الأمُّ في النِّقار الصباحي وغادرت غرفتهنَّ إلى غرفتها.

غادرتِ الأم المنزل، أخذت السيارة الرينو الزرقاء، توجَّهت إلى عملها الذي يقع في وسط البلد، اختارت طريق الكورنيش لتستمتع بهواء البحر البارد المنعش.

غادرَ البنات بعدَها بقليلٍ مع الأب في السيارة اللادا البيج، عدا كبراهن التي أخذت الترامَ من محطة زيزنيا حيث يقطنون.

في تمام الخامسة قبيلَ المغرب، أغلقت الأمُّ أدراج مكتبها بالمفتاح، مرَّت على مساعدها الإداري وقالت له إنها مضطرة للخروج مبكرًا، اتجهت لجراج المصلحة، وقفتْ لدقائق في انتظار السايس، الذي ظهرَ مهرولًا ومعتذرًا: "معلش يا أستاذة سامحيني على التأخير".. "حصلِ خير". تناولت المفتاحَ منه، قادت السيارة خارجةً بها من الجراج واتَّجهت إلى مكتب ابنتها حيث تعمل في مقرِّ منظمة الصحة العالمية الكائن على الكورنيش.. دقائقَ من عمل الأم، وجدت الابنةَ في انتظارها على باب المبنى الأثري الذي تحتله المنظمة.

ركبتِ الابنة في صمت، بادرتها الأم: "قلقانة؟". ردَّت الابنة: "ما بحبِّش الطريقة دي يا ماما في الجواز، لازم أختار الشخص وهو يختارني، ولولا حضرتك وطنط جوجو أصرِيتم إنّنا نتقابل عندها ورتِّبت الميعاد، أنا ما كنتش رحت". ربَّتت الأم بحنان على ركبة ابنتها

وهي تقول: "ما تستعجليش في الحكم، استني لما نشوفه وربنا يسهل...". لفَّهما صمت قطعته الأم بالحديث حولَ مشاكل العمل والطلبات التي تثقل كاهلها من كيكة الآيس كريم التي اشتهرتْ بها في المدينة كلها. قالت لها الابنة: "ما تبطّلي يا ماما!". ردّت الأم: "أنتِ أكيد فاكره أنا وأبوك بدأنا المشروع ده معَ دروس الثانوية العامة اللي قطمتْ وسْطِنا، لكن بصراحة بحبّ أعملهم، بنبسط قوي لما كلّ الناس بتسأل عليها وبتطلبها.. ده إحنا بقينا بنبعت القاهرة.. متخيِّلة!". مالت عليها الابنة مقبِّلة وقد لانَ قلبها وهي تتذكر كفاحَ أبيها وأمها لتوفير حياة كريمة لها ولإخوتها، وقبل الحياة الكريمة توفير الدفء لبيتهم، وهو ما تحلم به مع شريك الحياة المرتقب.

وصلَا تحت بيت طنط جوجو على شارع أبي قير، لم يجدَا سيارة الأب، قالت الأم: "ننتظر شوية، زمانه جاي". دقيقتان وظهرت سيارة الأب، ركنَ خلفَ سيارتهم، ترجَّلوا جميعًا من السيارتين، سلَّم عليهما الأب مقبِّلًا ابنته ومُربِّتًا على كتف الأم. فتح شنطة السيارة وأخرج منها الجاتوه السواريه، اتَّجهوا جميعًا نحو العمارة، صعدوا بضعَ سلالم وضغطوا جرس الشقة التي تقع في الدور الأرضي، فتحت صديقة الأم: "أهلًا أهلًا.. نوَّرتونا". دخلوا جميعًا. قبَّلت طنط جوجو الابنة الكبرة معلقة: "عروستنا منوَّرة". ثمَّ أشارت إلى علبة جاتوه (منا) وقالت: "تعبتوا نفسكم، ولو إنّه أحلى جاتوه فيكِ يا اسكندرية". ردَّت الأم: "سواريه اللي بتحبِّيه يا جوجو، قلت للراجل نُصّه يكون أجلاسيه". ضحكت

طنط جوجو وهي تقول: "على كده هعمل كلّ يوم جلسة تعارف عندي!". ضحكوا جميعًا ثمَّ اتخذوا مجلسهم في الصالون، بينما طنط جوجو في المطبخ تعدّ العصير انتحتْ بالأم جانبًا وقالت لها: "أنا قلت تيجو بدري شوية عشان تفك". ردَّت الأم: "خير ما فعلتِ.. أنا أصلًا ما ردتش أعلق على القميص المخطَّط والفيونكة الساتان السودا والجوب الطويل اللي اختارتهم من الصبح.. قلت ما أعقدش المسائل وأسيبها على راحتها.. ربنا يسهل، هوّ رأيك فيه إيه؟".. "بصّي يا ستي، هادئ وساكت شَبه أبوهم لحدّ بعيد..". ضحكت الأم وقالت: "ربنا يسهّل، يلّا بينا على الصالون".

بعدَ عودتهمٍ إلى منزلهم توجَّه الأب والأم إلى غرفتهما، وتوجهت كبرى البنات إلى غرفة البنات، لاحقتها أخواتها بالأسئلة وهي لا تجاوب، بدَّلت ملابسها وارتدت قميصَ النوم وفوقه الروب وتوجهت إلى الحمام، فإذا بالأم تقول: " هنشرب أنا وبابا ينسون، تعالي اشربي معانا، أو أعملك كاكاو دافي"...

" أنا داخلة الحمام.."

" طيب لما تخلَّصي تعالي إحنا في غرفة التلفزيون"...

" حاضر"...

انضمَّ إليهم البنات الأخريات، طلبتْ منهنَّ الأم الدخولَ إلى غرفتهن.

بدأتِ الأم الحديث: "هه.. رأيِك إيه؟".. "أنا مش عايزه اتجوِز دلوقت، أنا هكمّل الماجيستير والدكتوراه".

" الله! ورُحْت ليه الزيارة!؟".

" حضرتك اللي أجبرتيني".

"أنا لا أجبرتك ولا حاجة، إحنا اتفقنا.. وبعدين أنا وأبوك عايزينك تكملي الماجستير والدكتوراه، لكن ده لا يمنع إنّك تتجوَّزي بالراجل المناسب.. والعريس ده ما يتعيبش، أستاذ في الجامعة رايح منحة وأسرته ممتازة".

" ده وجهه نظرك انتِ.. أنا مش شايفة كده".

ردَّت الأم: "طيب بهدوء قوليلنا شايفة إيه!؟"

" شايفة واحد طول القاعدة ما رفعْش وشُّه من الأرض، حتَّى لمّا بسأله والدته اللّي بترد، سواء أسئلة عامة أو غيرها! أنا مش فاكرة شكله من كُتر وشُّه ما كان في الأرض"

" ده لأنه مؤدب.. ننكر على الناس الأدب! إحنا ما ربِّيناكمش عشان تتجوّزوا الصيّع، ربِّيناكم عشان تتجوزوا المحترمين المؤدبين".

قالت الابنة بتوتر:" ده مش أدب، ده انعدام شخصية".

" أنتِ مش مُدركة إنّ حكمك ده متجني، ولو تفكيرك كده هتضيَّعي على نفسك فُرص كتير من أولاد الناس المتربّيين".

ردَّت الابنة بعنفٍ وصوت عال: "يعني هاتجبريني على الجواز منُّه؟!".

تدخَّل الأب في الحديث قائلًا: "دي مش طريقة

كلام مع أمك. بهدوء فكَّري وقوليلنا مش عاجبك فيه إيه؟ ومش يمكن لما تعرفيه أكتر تقتنعي بيه!؟".

ردَّت الابنة باندفاع: "مش ممكن، أنا مش متخيلة إني أصحى الصبح ألاقيه جنبي...". هنا، انفعل الأب صارخًا: "أنت قليلة الأدب.. اتفضلي على أودتك". تناهى للجميع صوتُ أقدام البنات وهنَّ يركضن على الغرفة استباقًا لأختهنَّ حيث كنَّ يسترقنَ السمع. دخلن جميعًا الغرفة وأغلقَ الباب.

جلسِ الأبُ والأم معًا على الكنبة، وقد شحنهما الغضبُ، قال الأب: "بنتك قليلة الأدب، إزّاي تقول كلمة زي دي!".. "معلش البنت جدّ جدًّا، وأوّل مرة تواجه الموقف ده، فتوتِّرة، ندّيها فرصة تانية معاه، يمكن..".

" لا يمكن طبعًا، دي بتقولك ما اتخيّلش أعيش معاه، جابت من الآخر.. كلّمي جوجو اعتذريلها".. "لأ خلينا نكلم أخوك الأول يمكن يقنعها، هيّ دايمًا بتقتنع بكلامه.. هكلّمه الصبح.. تحبّ نتعشّى؟".. "ما ليش نفس طبعًا.. أنا داخل أنام". قام الأب، تأخَّرت عنه الأم لتطفئ أنوار غُرف المنزل، ولتتربس باب الشقة.

في الصباح، بعد أن شربَ الأم والأبُ القهوة اتَّصلت الأم بالعم الذي استمع لها، ثمَّ قال: "كلّ الأمور بالخناق إلا الجواز بالاتفاق. سيبيها على راحتها، ربنا شايل لبنتك نصيب أحسن. وبعدين ديه جوهرة.. أكيد ربنا هيبعتلها حدّ من قيمتها، لا آخر ولا أول أستاذ جامعة. دول ماليين البلد...". وضحكا معًا. ناولت الأمُّ السماعة

لأخيه الذي تبادل معه بضعَ جمل ثمَّ أغلقا الخط.
قبيلَ نزول ابنتهم الكبرى جاءت إلى حيث يجلسان وقالت: "بالنسبة لامبارح". ردَّ الأب وهو يشيح بوجهه: "الموضوع انتهى خلاص.. اتفضَّلي على شغلك".

***

بينما الأمُّ تعانق ابنتها وتغالبُ دموعها في المطار، تقول لها الابنة: "ما تعيّطيش يا ماما، أنا سعيدة...". تبتسم الأمُّ وتنظر لها بحنان وهي تقول: "ربنا يسعدك كمان وكمان.. مش هوصّيكِ على عريسك، ده انتِ وهو جوهرتين..."... "ما تخافيش يا ماما، قبل ما يكون زوجي هو ابن عمي". سلَّمت الابنةُ على الأهل المجتمعين في وداعها، واتجهت وأمها وأبوها لداخل المطار.

تراقب الأم ابنتَها بفستان الزفاف وهي تعتلي سلمَ الطائرة تبكي وتقول لزوجها: "نَفس الموقف ده حصل مع مرات أخوك من نفس المطار ده، ودَّعتها وهي رايحة لأخوك بعد ما ساب مصر في مذبحة القضاة أيام عبد الناصر، فاكر؟! أنتَ كنت في الجبهة ساعتها.. فاكر!". أومأ الأب برأسِه وهو يغالب مشاعرَه ويقول: "مين يصدق إنّ الزمن يمرّ وتتجوّز بنتنا ابنه، وتسافرله برضه في ظروف مشابهة". ردَّت الأم: "يا ريت يكون نصيبهم في بعض زيّ نصيب أخوك ومراته".

لوَّحت لابنتها وهي على سلَّم الطائرة، بينما ابنتها تمسح دموعَها وتلوِّح مودِّعة قبل أن يواريها مدخل الطائرة.

الباقيات الصالحات

نظرتِ الزوجة له في الفراش حيث يرقد منذُ أربعة أشهر، أمسكتْ بيده.. قبّلتها، قالت له هامسة في أذنه: "أنا بحبك ما تسبنيش.. ما تسبنيش.. فوق.. قوم... أنتَ هتقدر". شعرت بضغطة يده على يدها، ضغطة خفيفة لن يشعر بها أحدٌ سواها، أوَليست عِشرة أربعين عامًا، أوَلم تصمت الكلمات كثيرًا، وفهمَا بعضهما بالنظرة وبالإيماءة، مالت قبّلت رأسه، وظلّت في وضعيتها مائلة إلى جواره حتّى شعرت بحركة خلفَها. بعض زملائهم في الجامعة أتيَا للاطمئنان عليه، حيّتهم وخرجت لتفسحَ لهم مجالَ الكلام معه حتّى وإن لم يرد، منذ دخل في الغيبوبة والقاصي والداني يقصدُ المشفى، وبينما تتوارى هي خلفَ أستار العناية المركزة في المستشفى حيث يرقد تسمعُ همسات الزوار له، حزن، أملٍ، بل وأحيانًا ذكريات، تتركهم معه، ولو سمح وقت الزيارةِ تعود لتكون آخرَ من يودِّعه، وإن لم يسمح الوقت تظلّ في الخارج لتودع آخرَ الزوار، وتستقبل أمانيهم لها وله.

تزوّجَا في الستينيّات في زمن الأحلام والآمال العظام، وكان حبهما عظيمًا عظمة هذا الوقت، أحبّا بعضهما حبًّا جمًّا، هو الطالب الريفي ابن العائلة الكبيرة في الشرقية، ابن البلد الجدع بهدوء، الصادق، مَن يغيث الملهوف والمحتاج ولو على حساب نفسه، وهي المرأة الهادئة ابنة الأسرة المحافظة المتعلمة، بيضاء ملوّنة العينين، ينسدل شعرُها الطويل ذيل حصان خلف

رأسها، لم يشعرا بالحب جارفًا هادرًا، وإنما تسلل ببساطة وهدوء إلى قلبيهما طوالَ سنوات الدراسة في كلية الطب، يسبقها بدفعتين. يوم دخولها الكلية كان يقفُ مع زملائه بجوار الباب الرئيسي للكلية، نظرَ إليها وسط صديقاتها، وابتسم، لم يعرف أبدًا لم ابْتسم، حتى لحظة مجيء والده العمدة بملابس الريف المهيبة ورائحة العطر العربي ليطلب يدَها من والدها بعد أن تمَّ تعيينها بعده في الجامعة بعد تخرجها.

مضتْ سنواتُ زواجهما الأولى بهدوء، انشغلَا معًا بالدراسة وبتثبيت أقدامهما في الجامعة، مضتْ عشرُ سنوات ولم ينجبَا، لم يلتفتا للأمر بجديَّة، وعندما انتبها أجريَا في صمتٍ الفحوصات اللازمة، وكان كلٌّ منهما معافًى سليمًا. ضحكت وهي تقول له: "الباقيات الصالحات.. صح!؟" احتضنها وأحبَّها حينها كما لم يحبَّها من قبل.

أطلق كلٌّ منهما للآخر العنانَ في تبني كلِّ من حولهم، فلو أنهما ما أنجبَا، لكنٍ كلّ أولاد أخواتهم وإخوانهم وطلبتهم في الجامعة تحوَّلوا إلى أبناء، انشغلَا بهم بهمومهم الشخصية والأسرية، وتكفَّلوا برعاية كثر، وأصبحَا بالفعل أبًا وأمًّا لمن حولهم صغارًا وكبارًا، حتّى أصبح جميع أبناء الإخوة والأخوات ينادونهم بابا وماما.

عندما سألتها صديقتُها في حفل التخرج السنوي للكلية: "إيه كمية الطالبات دي اللي مش سايبة زوجك؟ ما تعملي حاجة". ابتسمت ولم ترد، لقد اختارَا بعضهما

البعض، لم يجبرهما على الصحبة طفل أو مصلحة ما، وحُرَّين سيظلّان أبدًا بلا ضغوط مجتمعية، لا تفهم مَن هما ولا ما بينهما، نظرت له وهو يحمل طبقَه الفارغ في الحفل كما هي عادته، ويدور محدثًا الطلبة وأسرهم، إذ يأخذ الطبق ويهمُّ بوضع بعض الطعام به فيأخذه الكلام مع مَن حوله، وينسى، ويظلّ الطبق فارغًا في يده. سارت تجاهه، نظرت له وهو يأخذ خطواتٍ للأمام ببطء، ثمَّ يدور في دائرة من الخطوات. ضحكتْ، فهي عادته في السيْر، لا يغيِّرها أبدًا، حتَّى لو يسيرَا معًا في حديقة. تقدَّمت نحوه، ربتّت على كتفه، نظر لها مبتسمًا بنظارته الكبيرة، قالت: "أحطلك إيه؟" ردَّ عليها: "أنت عارفاني راجل فلاح، شوفي بقى الفلاح هياكل إيه". ضحكت وقالت: "يعني لا سيمون ولا شوكولاتة؟". نظرَا لبعضهما البعض بودٍ ومحبة، واحمرَّ وجهها بينما يضغط على يدها بقوة.

رفضَ طوال حياته فتح عيادةٍ خاصَّة، واكتفي بالعمل في الجامعة ومستشفاها والبحوث المرتبطة بذلك.. "أنا مش هدخل دايرة التجارة دي مهما حصل، إحنا ما درسناش عشان نبقى أغنيا، إحنا درسنا عشان نبني البلد". كان هذا ردَّه على أيِّ شخص يفتح معه الموضوع.

بعدَ تقاعده أصرَّت زوجته على أن يؤجِّر مكتبًا يلتقي فيه الطلبة والزملاء طوالَ الوقت، وأن لا يكتفي بوقته كأستاذ غير متفرغ في الجامعة، مكتبًا يحقق له الاستقلالية، ويبعد عنه مخاوفَ وتبعات التقاعد،

أصبح مكتبه مقصدًا للقاصي والداني، وتحول إبّان ثورة الخامس والعشرين من يناير مقرًّا لشباب الجامعة من كل الكليات، يرتِّبون فيه تحركهم، ويستمع إليهم يضحك أحيانًا، يعترض قليلًا، ويصدم كثيرًا من آراء "الولاد" الثورية "بالزيادة"، وقال لها يومًا بعدما عادَ من جلسة محترمة مع الولاد "جيلنا لازم يسيبهم يعيشوا.. هنغرقهم لو كبسنا على نفسهم".

"بتكحّ جامد.. مش كده!". علَّقت على دور الأنفلونزا الذي أصابه وما تركه: "أنا بصراحة هروح لمحمود، فعلًا تعبان".. "آجي معاك؟".. "لا هقولك اللي هيحصل، أنتَ في امتحانات". لم تعدِ الحياة كما كانت بعد الزيارة، انقلبتْ حياتهما رأسًا على عقب، إنه المرض اللعين، بسرعة تواصلًا مع أبناء لهم في الخارج، سافرَ وحده مصرًّا على أن لا تذهب معه.. "ما اعرفش هبقى ازّاي.. عايزك هنا.. عايزك جامدة وقوية.. ولادنا كتير هناك مش هيسيبوني". وقد كان غادر وحدَه، وعاد بعد ستة أشهر معافًى سليمًا. تغلب على المرض من خلال تجربةٍ طبية ودواء تحتَ التجربة، على أن ينتظم بعدَه على دواء آخرَ طيلة العمر، لم يظنّ أحدًا أن الستة أشهر كانت هديةَ وداع من الله لأبنائه في الخارج.

"خلّي بالك يا حبيبي". هتفت وهي تركض نحوَه بعد أن سقط فنجان الشاي من يده، ولكن بعد أن سقطَ هو شخصيًّا في اليوم التالي، لم تكتفِ بالكلمات أصرَّت أن يذهب إلى المشفى لعمل الفحوص الضرورية.

نصحَ الأطباء بضرورة إجراء عملية فورية في المخ

للتخلُّص من تجمع دموي، أجرى العملية وأفاقَ ليقول لها: "ما تعيطيش عايزك جامدة.. عايزك قوية.. عايزك مؤمنة". وكانت كلماته الأخيرة لها، لسبب غيرِ معروف دخلَ في غيبوبة غير مفسّرة طبيًّا.

احتضنت إحدى التلميذات وهي تغادر بعدَ الزيارة بينما تقول لها: "ده حبيبنا حبيبنا كلنا.. ربنا مش هيسيبه.. ده رفع درجات".. بكت كما لم تبكِ من قبل وهي تذكر كلماته عندَ وفاة أستاذٍ لهما بعد غيبوبة طويلة "رفع الدرجات بيكون قبل الوفَاة رحمة من ربنا". يومها استأذنت مدير المشفى أن تمضي معه الليلة كمرافق. أتتْ بكرسي، وضعتِ الكرسي بجوار فراشه، وأمسكت بيده وأخذت تكلِّمه وتحدثه، وتحكي معه وكأنه معها، لا تريده أن يذهب.. "لسَّه بدري.. لسَّه بدري".. هكذا كانت تهمس، والممرضة توقظُها لتغادر في الصباح حيث لا يسمح بمرافق في العناية المركزة.

توزّع جدولها اليومي بين المستشفى والجامعة والمنزل ومكتبه الذي تحوَّل إلى خلية للأبحاث من أبنائه حول الحالة، وما تحتاجه والمتوقع.

تلقَّت مكالمة وهي في مراقبة الامتحانات. ردَّت، تركت اللجنة وذهبت لفورها. مات الأب والأخ والصديق والحبيب، عانقته عناقَ مودّع وهي تهمس مردِّدة: "هنتقابل.. هنتقابل تاني..." أبعدتها أختها عن الجسد المسجَّى أمامها، وهي تقول في هدوء: "هو مش هنا.." ردَّت عليها: "هيفضل دايمًا هنا". رحلَ بهدوء بلا ضجيج تمامًا، كما دخل حياتها من قبل.

وهي واقفة تحتضن أبناءهم في العزاء، تعبت، امتدَّت طوابير المعزّين حتى أغلق الأمن شارعَ مسجد القائد إبراهيم، جلست، لم تقو على الوقوف أكثرَ من ذلك، لا تذكر الوجوهَ ولا الكلمات، كثيرة جدًّا الأعدادُ، وكُثر هم الأبناء، الكل يعزيها: "البقاء لله يا ماما".. "البقاء لله، بابا في الجنة". تذكر كلماته كلما حضرَ موضوع الإنجاب... "الباقيات الصالحات".

محاولةُ هروب

رنَّ صوتُ القلم الذي صكَّت الأخت الكبرى به وجهَ الصغيرة في البيت كله، بينما تصرخ فيها: "أنت فاكرة إنّ عشان أبوك مش موجود مش هتربِّي!؟ لو أمك مش قادرة عليكِ أنا هربيكِ". نظرت إليها الصغيرة بذهولٍ وانطلقت راكضة، فتحت بابَ الشقة وركضت إلى الشارع، ركبت دراجتها التي تركتْها عادة في مدخل العمارة، بينما الأمُّ التي أتت على صوت الصراخ تركض وراءها صارخة: "يا بنتي، رايحة فين ارجعي".

اختفتِ الفتاة مسرعةً ربما لم تسمع الأمَّ، أو ربما سمعتها ولَم ترغب أن ترى بؤسها من قلم أختها.

صعدتِ الأم درجاتِ السلم وصرخت في ابنتها الكبرى: "إيديك ما تمَدّش عليها فاهمة، مهما كان اللي حصلِ، لو ضربتيها هتضربك لما تكبر، أنت فاكرة نفسك فتوة! أنا مش بربّي فتوات في البيت ده". برطمت الابنة الكبرى، ودخلت إلى غرفتها، بينما خرجت الأم للبلكون تنتظر أن تلمح ابنتها عائدة.

يقطنون بنايةً من أربعة أدوار في حيٍّ مصر الجديدة خلفَ مسجد الميريلاند. تزوَّجت الأم والأب في هذه الشقة، عاشَا في بحبوحة وفَّرها لهم عملُ الأب الحر، عندما اعتقلَ الأب كان علي الأم تحملُ مسئولية العملِ الحرّ الذي لا تفقه فيه شيئًا، انسحب العملاء واحدًا بعد الآخر خوفًا من ضررٍ قد يصيبهم على خلفية انتماء زوجها السياسية، لم يهمّها ذلك وإنما كان همُّها أن لا

تترك ديونًا على شركته، وتعطي كلَّ ذي حق حقَّه، وأن توقف نشاطها حتَّى يخرج، في الزيارات القليلة التي فازت بها لم تخبره بما تمّ، ولم تقل له إنَّها تبحثُ عن عمل لتسدَّ به رمقَ الصغار الثلاث، كان جسدُه في هزال مستمر، عندما استدعوا الأم لتسلم جثتَه عرفتْ من العلامات التي ملأتها كيف أتتِ النهاية.

لم تركنِ الأم لا للحزن ولا للتفكير في الماضي، فورًا كثفت بحثها عن عملٍ بشهادتها في اللغة الإنجليزية التي تجيدها، وبالفعل حصلت على عمل في مدرسة الراهبات المجاورة للمنزل، لم يتركها لا أهلها ولا جدّ الأولاد لأبيهم، ولكنْ عاجلته المنية حزنًا على ولده الوحيد مخلفًا عمة أولادها التي تكبرها ولم تتزوَّج، لتجد الأم نفسَها وحيدة إلا من سند أخواتها وأمها.

تعاني في تربية الأبناء الثلاث، خاصَّة الفتاة الصغيرة التي كانت أكثرَ الجميع تعلقًا بأبيها، ومع غياب الأب تتجبر عليها أختاها الأكبر سنًّا.

دخلتِ الأم من البلكون، أمسكتْ بالهاتف وأخذت تطلبُ إخوتها اللاتي يقطنَّ جميعًا حولها، الصغيرة ليست عند أي منهنّ.

خرجت مرَّة أخرى إلى البلكون، تُحرك رأسها يمينًا ويسارًا بحثًا عنها.

في غضون ذلك أخذت الفتاةُ دراجتها وانطلقتْ في شوارع مصر الجديدة وهي تجاهد دموعها، وأصابع أختها تبدو واضحة على وجه الصغيرة الأبيض المشرَب بالحمرة، لم تبكِ سابقًا أمام أحد، حتَّى عندما علمتْ بوفاة أبيها لم

تسمح لدموعها أن تسيلَ أمام أي منهم ولا حتى أمها، ولن تترك دموعها تغلبها الآن، ضربت بدّال الدراجة بقوة وهي تتمتم: "مش هرجع لهم تاني". أخذت تلفّ بالدراجة الشوارع الهادئة، حتى وصلت إلى الميريلاند، ترجّلت وأمسكت الدراجة بيديها وأخذت تسير ببطء وهي تتلصّص بنظرها داخل الحديقة التي تمتلئ بالأحبة، ضحكت وهي ترى تلهفَ أحدهم على الإمساك بيدِ حبيبته. توارت خلفَ شجرة وأطلقت أصواتًا مزعجة مفاجئة، تلفّت العاشقان حولهما في انزعاج وقلق، وقامَا من توِّهما بسرعة، ضحكتِ الصغيرة وخرجت من مكمنِها وعادت لتجولها حول الحديقة مترامية الأطراف، عند الكشك الصغير الواقع عند ناصية الحديقة توقّفت وأخرجت خمسةَ جنيهات من جيب البنطلون واشترت زجاجة مشروبٍ غازي، أخذت تشربها ببطء وهي تجول بنظرها في الطريق. تقدَّم منها صاحبُ الكشك ومعه بقية الخمس جنيهات وقال في جرأة: "أنت بتدوَّري على حدا؟ أنت أمك في الجنينة؟ واللّا أنت هنا لوحدك؟" انزعجت منه، وضعت بهدوء الزجاجة التي في يدِها على شباك الكشك، وفي حركة مباغتة قفزت على دراجتها وانطلقت دون أن تردَّ على صاحب الكشك الذي فوجئ بمغادرتها السريعة، فانطلق يركض وراءها وهو يقول: "تعالي يا بت.. أنت يا بت!".. ثمَّ توقف لاهثًا بعدَ بضع خطوات.. يراقبها وهي تبتعد بدرجاتها.

لفّت بدرّاجتها حول الميريلاند وأخذت شارع السبق، وصلت لنهايته، عبرتِ الطريق بدراجتها، واقتربت من المترو، عبرت مسجد الخلفاء الراشدين، وترجّلت

عن درجاتها أمامَ سوبر ماركت إكسبريس. تركت الدراجة أمامه ودخلت، أخذت تتجوَّل بين الأروقة المختلفة حتى وصلت إلى ركن الحلويات. ظلَّت تتأمل مختلف المنتجات، اختارتْ بضع أشياء، حملتها وتوجَّهت للكاشير للدفع، وضعت الأشياء أمامه. مدَّت يدها إلى جيبها بحثًا عن النقود، تذكرت أنها تركت الباقي لدى الكشك عندما هربتْ من الرجل، نظرت إلى الأرض بخيبةِ أمل، بينما قال البائع وهو يناولها الكيس بالأشياء: "تلاتة جنيه ونص". نظرت للبائع بصمت، زادَ البائع: "هتدفعي واللّا لأ؟!". خرجت تجري من المحل، والرجل يلاحقُها بكلماته اللاذعة: "عيال نصابة.. فين أهلكم؟". بينما تبتعد من أمام السوبر ماركت.

لفَّت حولَ السوبر ماركت من الخلف، لمحتها الأمُّ التي تقف في البلكون، هتفت بلهفة: "أسماء، ما تحركيش.. أنا نازلة". تسمَّرت في مكانها، لم تتصوَّر أنها اقتربتُ لهذه الدرجة من المنزل. رفعت رأسها.. رأت أمها تبتسمُ وتهتف مرة أخرى: "ما تحركيش.. أنا نازلة". وقفت في مكانها، رفعت رأسها مرَّة أخرى، رأت أختها في شرفة المنزل، أشاحتْ برأسها بعيدًا، شعرت بلمسةِ على كتفها، التفتت لتجدَ الأم، همست: "ماما أنتِ بهدوم البيت". ابتسمت الأم وقالت: "إيه يعني مكسوفة مني؟". صمتت، أمسكتها الأمُّ من يدها، وسارت بضع خطوات وهي تقول: "خلّينا نتمشّى شوية".. "يعني أنت مش عايزه نطلع فوق؟".. "لأ".

ترجَّلت الصغيرة من على الدراجة وسارت بجوار

الأم، سألت الأم ببساطة وهما تسيران: "كنت فين؟".. "كنت بتمشّى بالعجلة".. "وكنت رايحة فين؟".. "مش في حتة".. "طب كنت ناوية ترجعي إمتى؟".. "مكنتش ناوية أرجع، كنت عايزه أهرب". ردّت الأم بتعجب: "تهربي.. تهربي تروحي فين؟". رفعتِ الصغيرة صوتها الذي تحشرج وهي تقول: "أي حتة.. أنت مش عارفة تحميني، من يوم بابا ما مات وأنا ملطشة". وانفجرت في البكاء.. توقّفت الأم وحضنتها بقوة وأخذت تربِّت على ظهرها في حنان.

مرَّ بجوارهم جار، حيَّا الأمَّ وسأل وهو ينظر للملابس البيت التي تسير بها الأمُّ في الشارع بأريحية: "أي مساعدة يا هانم؟". شكرته الأم والصغيرةُ مازالت في حضنها، بعدَ قليل عندما هدأ بكاءُ الصغيرة أبعدتها الأمّ عنها وهي تقول في هدوء: "ممكن تكملي عياط لو عايزه".. "لا أنا خلّصت خلاص".. "طيب ممكن نكمِّل مشي".. "حاضر". وهما تسيران قالتِ الأم: "بصّي يا بنتي، سواء أبوك عايش واللّا لأ.. الضعيف اللي بيهرب بيبقى ملطشة.. أختك ضربتك تضربيها، زعقت تزعقيلها، مرّة واحدة ومحدِّش هيعملها معاكِ تاني، أنت أصغر وأقصر، بسّ الكل لازم يعرف إنك تقدري تاخدي حقك، ما تخافيش ولا تستنّي حد عشان ياخد حقك، لازم تعافري". قاطعتها الابنة: "أعافر ازّاي!".. "تغلبي الزمن يا بنوتة وتعافرى الناس وتاخدي اللي انتِ عايزاه طالما صح.. ما تخافيش من حدّ، وما تستنيش حاجة من حدّ، وبعدين بقيتِ ملطشة إزّاي، أنا مش كنت في المدرسة وبهدلتِ المدرس اللي زعّقلك؟ وفي النادي

مش لسَّه متخانقة عشانك؟".. "أيوه يا ماما، بسّ سايبة عمتو من يوم جدّو ما مات وهي بتتحكّم فينا وسايبة البلاوي الكبار يعملوا اللي هما عايزينه". ردَّت الأم: "ما تقوليش على إخواتك بلاوي، وسايباكِ انت كمان تعملي اللي انتِ عايزاه، فيه بنت تانية في المنطقة كلها بتركب العجلة إلّا أنت؟". ردَّت الابنة بخجل: "لا". قالت الأم: "لأن موت أبوك يا بنتي علِّمني إني لازم أسيبكم أقويا، تقفوا في وشّ التخين، لو اتحكمت فيكم هتكونوا ضعاف، أما موضوع عمتك ده فهشرحهولك لما تكبري، بسّ دلوقت لازم تعرفي إن الواحد من غير أهل ما يسواش، حتى لو كانوا زي عمتك متسلّطين". ضحكتِ الابنة وابتسمت الأمّ لضحك ابنتها. سألت الأم: "ممكن نرجع البيت بقى، كفاية لفّ في الشوارع بالروب وطرحة الصلاة!". لفّت الابنة ذراعها حول أمها وهي تقول: "بحبك يا ماما". عانقتها الأم وهي تقول: "ده بيتك، إوعك تقولي هَهْرب دي تاني، ده بيت أبوك وأمك وهيفضل كده للأبد، الشارع مش مكانك أبدًا، فاهماني!؟ اللي ما لوش بيت اللّي في الشارع بياكلوه". سارتَا معًا في الطريق إلى المنزل، والابنةُ تحتضن أمَّها بكلتا يديها، والأمُّ تجر الدراجة بيدها.

المنافسة

"أنتِ بتحبيه أكثر منّي.. أنتِ ما بتحبِّنيش.. عمرك ما بتعمليله حاجة مهما عمل".

صرختِ الابنة الصغيرةُ في وجه أمّها وغادرت راكضةً صوبَ غرفتها، وسمعت الأمّ هبد باب الغرفة .

تهاوتِ الأم مُتعَبة على الكنبة، تفكر، كأنَّهم مولودون فوقَ رؤوس بعض. بسّ الراجل راجل، ولا يمكن أن توجِّهه أو تصغر من شأنه أمام أخته الصغيرة.. مهما عمل. هكذا هُم في الصعيد! ولم تتمكنْ من التخلي عن إرثها الصعيديِ رغم النزوح للمدينة.

نادتْ عليه، جاء متنمّرًا، نظرَ في عيني أمه وأخضعه فورًا حنانُ عينيها، عاتبَته: "أنتَ الكبير العاقل القدوة، ما ينفعش.. ده أنا بقول أنتَ المسئول عنهم بعدي وبعْد أبوك!". أمسك يدها وقد عصرت قلبَه الصغير كلماتُ أمِه، حاول الردّ: "قليلة الأدب ومش بتحترمني..."

"معلش أختك الصغيرة.. أنتَ تحتويها مش بين كلِّ موقف والتاني استفزاز".

ما تنّاش لأمه كلمة: "حاضر يا ماما، حاضر.. أنا آسف هصالحها"

غادرَ إلى غرفته، مشيَّعًا بدعاء أمه له.

قامتِ الأم، طرقت بابَ غرفة ابنتها، لم ترد، فتحت البابَ بهدوء، وجدتِ الابنة نائمة، بينما سماعاتُ الإذن موصَّلة بجهاز السي دي الصغير، تستمع فيه إلى

الأغاني.. وقد أغمضت عينيها بقوة.

انسحبتِ الأم بهدوء وقد أدركتْ أنه من العسير التحدثُ مع ابنتها في تلك الساعة.

في صباح اليوم التالي، غادرا إلى المدرسة مع الأب وهو في طريقه لعمله، تجنَّبت التحدث مع أمها في الصباح، وتجاهلت محاولاتِ أخيها معها، ترنّ في أذنيها كلمةُ الأب عندما جاء مساءً، وتسلَّلت من غرفتها لتحكي له ما حدث: "أمك صعيدية، الرجالة عندها ما بيغلطوش"...

عرفتْ في الطريق من أبيها أنَّ أمها ستتجه ظهرًا لجلسة الكيماوي الثالثة وجلسة إشعاع كذلك، لا تعرف الصغيرة عنْ هذه الأمور الكثير، وقد فقدت العدَّ بين جلسات الإشعاع والكيماوي، تعلمُ فقط أَن كلمة سرطان كلمة كبيرة ومُخيفة، تشعر بقلقِ أبيها الدائم، ولا تعرف كيف تتصرَّف، ولا ترى سوى محاباةِ أمها للأخ الولد على حسابها، وتفتقد اهتمامَ أمها المعتاد بها، لا تدري ما الذي يمكن أن تقوم به كي لا تفقدَ أولًا حبَّ أمها، وثانيًا أمَّها نفسها. تملَّكها الغضبُ من الشعور أن أمها قد تذهب، تأكيدُهم على أنها لن تموتَ لا يؤكد إلى العكس تمامًا أنها ستموت، لم يترك السرطان أيَّ شخص حولهم، كلُّ مَن أصيب به رحَل، فهل سترحل أمُّها على نفس الطريق؟!

مضى اليوم الدراسي وهي مُستمتعة بتفوُّقها في التاريخ والموادِ الأدبية، وتتجاهل المشاركة في دروس الكيمياء والحساب...

جاءتِ الفسحة، فتحت الشنطة لتأخذَ المصروف، وجدتْ علبة بلاستيك فتحتها لتجدَ كيكة اللون التي تعشق، وساندوتش الجبن الجودة بالبسطرمة مقطَّعًا مربَّعات صغيرة كما تحبه، ومجموعة من شوكالاتات الماكنتوش التي يحضرها أبوها من رحلاتِ سفره، وكارت صغير من أمها فيه قلبٌ أحمر ملوَّنَ بالألوان الخشبية التي علمتها أمها بها الرسمَ وهي بعدُ صغيرة. لقد فكَّرت أمها في كلِّ شيء، أخذت العلبة، دخلت الحمام، وانخرطتْ في بكاء شديد.. أخذت تبكي وتبكي وهي غير قادرة على التوقف.

عندَ عودتها إلى المنزل، أخذت تركضُ على السلالم، فتحت أمُّ محمد الباب.. "ماما فين؟".. "الدكتورة في أوضتها"...

دخلتْ غرفة أمها، نائمة في سلام، وجهها أصفرُ شاحبٌ وقد ضمرَ جسدُها عما كان عليه. تسلَّلت بهدوء، أمسكت يدها وأخذت تقبِّلها، اليد الناعمة والأظافر المصقولة اللامعة المبرودة بعناية، ورائحة كريم نيفيا ميلك الذي لا يفارق يدَ أمها. أخذت تهمس: "سامحيني يا ماما أنا بحبك، أنا بحبك".. سحبتها أمها تجاهَها وهي تضمُّها بينما تقول: "بتعيطي ليه هو اللّي يحبّ حدّ يعيط كده!؟ ده حتى الحب بيفرح". أخذت تبكي في حضنِ أمها ورائحةُ الإشعاع تملأ أنفها. حضنتْها أمها بقوة وهي تربِّت على رأسها الصغير.

الأب

"البتّ بيضة.. بيضة بيضة وأنا أعمل إيه".. يغنّيها الأب وهُم على طاولة الإفطار، ويغمز لابنته الجميلة ويضحَك. تتوتّر الأم كلما سمعتها منه، وقد أصبح يغنّيها كثيرًا في الآونة الأخيرة! ذلك التوتر الذي تلاحظه الابنة في برِبشة الأمّ بعينيها، ورعشة يديها الخفيفة. تدخل الابنةُ لغرفتها وتنظرُ في المرآة وتتعجّب.. من أين أتى كلُّ هذا البياض وأبوها أسمرُ وأمها سمراء! تضبط شَعرها وملابسها وتنطلق للدرس.

تزايدَ توترُ الأم ولم تعرفْ له الابنة سببًا. تزايد تواجدها في المنزل وأصبحت تضبط مواعيدَ عملها ذهابًا وإيابًا معَ مواعيد ابنتها التي ستنهي الثانوية في عامها هذا..

"ماما، أنت قلقانة على الامتحانات؟"

"ماما، أنت شاكّة فيّا؟"

"ماما، أنت زعلانة منّي؟"

والأمُّ لا تجاوب على الأسئلة إلّا بهمهمةٍ غير مفهومة.

عادتِ الابنةُ إلى المنزل مبكرةً عن موعدها لأنَّ الدرس أُلغيَ. حاولتِ التواصل مع الأمّ ولكنَّ هاتفها كان مغلقًا. حاولت فتح الباب بالمفتاح، لم تتمكن لوجود مفتاح آخرَ في الجهة الأخرى. رنت الجرس، فتح لها أبوها هاشًّا وباشًّا وهوَ ينزع المفتاح من الباب ويضعه في طبق المفاتيح، وسحبها من يدها محتضنًا وهو يقول: "الشاويش مش هنا، تعالي نتفرّج على فيلم مع

بعض". قبَّلته على خدِّه، ودخلت غرفتَها.. غيَّرت، ارتدتْ شورتًا وتي شيرت بيتي. خرجت لتجدَ والدها وقد أعدَّ طبقًا كبيرًا من الفيشار. جلسَا معًا على الكنبة أمام التلفاز يضحكان ويأكلان ويحتضنُها بين الحين والآخر أو يربِّت على خدها. دارَ المفتاح في الباب ودخلتِ الأمُّ سألت الابنة بحزم:

"أنتِ جيتِ بدري!؟"

"أيوه يا ماما، الدرس اتْلغى"

"طيب. تعالي عايزاك"

توجَّهتَا إلى غرفتها، بينما أكمل الأبُ مشاهدة التلفاز.

قالت لها: "أنا قلت لك ألف مرَّة الهوت شورت ما يتلبس خالص، صحّ واللّا لأ؟!"

"يا ماما، أنا في البيت"

"ممكن تسمعي كلامي.. افرضي حدّ جَه فجأة!"

بدأتِ الأمُّ في التوتر والارتجاف..

"ماما، خلاص ما تزعليش خالص. حاضر اللي انتِ عايزاه"

في اليوم الثاني، فوجئت الابنةُ أنَّ الأم أخذت إجازة من العمل وأصبحت ترافقها كظلِّها من الدروس للنادي لأعياد الميلاد، وهي متعجِّبة، وأحيانًا غاضبة لأنها عزَتْ ذلك لعدم ثقةِ الأم بها.

انتهتِ الامتحانات، وظهرتِ النتيجة، وكان مجموعُ البنت كبيرًا يؤهِّلها لأي كلية.

فوجئتْ بأمها تقيم لها حفلًا كبيرًا حضره الأقاربُ والأصدقاء، وأعطتها أوراقَ القبول في جامعة أجنبية طالما حلمتِ الابنة بها.

وهما في المطار، قالتِ الأم للابنة: "ده حلمي اللّي عشت عليه سنين طويلة، أنتِ كلّ حياتي".. وزادت: "أنت دلوقت كبيرة، وأقدر أقولّك حاجات كتير، أنت قوية زيّي، وهتفهمي أنا بقول إيه. أنا عرفت أبوكِ وأنا صغيرة في الشركة وهو موظَّف كبير، حبّيته وانبهرت بيه، وكانت الغلطة الكبيرة كنت أنتِ نتيجتها أجمل حاجة في حياتي، بعدها بكام يوم أبوكِ سافر هونج كونج في وظيفة تانية وشركة تانية مِن غير حتى ما ألحق أقولّه.. ما عرفتش طريقُه إلّا من كام سنة، وما حاولتش اتواصل معاه.. ما كنش لها معنى، هو كان إنجليزي"..

"ماما، بتقولي إيه!؟"

"هش، اسمعيني للآخر..."

"اللّي أنقذني أبوكِ اللّي انت عارفاه ده، زميلي، مطلق مرّتين، بتاع نسوان.. بسّ كتبك باسمه، الوحيدة اللي عرفتْ خالتك ايمان وهيَّ اللّي رتِبت الجوازة.. ما حدِّش غيرها عرف، حتى أمي...

وأنقذنا

أبوكِ ده أنقذك وأنقذنى.. حَبّك أكيد ما قدرش أنكر، بسّ عشت على طول خايفة من اللحظة اللّي يشوفك فيها ستّ مش بنته".

"ماما، اسكتي، مش عايزه أسمع"

احتضنتها أمها وهي تبكي وتمتمت: "ده كتير عليكِ، أنا عارفة..."

"أيوه ياماما، وليه دلوقت؟!"

"كلّ التفاصيل عن أبوكي الحقيقي في الظرف ده، أنتِ حرَّة، حاولي تلاقيه أو ما تحاوليش.. أنتِ حرة. سافري وادرسي وانجحي وارْجعيلنا وانتِ مش محتاجة حاجة ولا حد.. وأنا هفضل هنا مستنّياك ومش هسيبك هناك، هأفضل رايحة جايَّة عليكِ...

أنت كل حياتي..."

بينما تبكي الابنة بحرقة تقول بين دموعها: "ماما.. ماما.. ماما..."

"أنا آسفة إني مقلتلكيش قبل كده، كنت مستنيَّة لحظة مناسبة...

يا ريت ما حدِّش يعرف، بالذات أبوكِ لإنّه برّ بوعدُه ليّا وربّاكِ، وعمره ما فكَّرني.. بسّ التمن كان سكوتي على كلِّ علاقاته التي لا تعد ولا تحصى...

يا بنتي، خلّي بالك من نفسك.. حفاظي عليكِ كان تمنه كبير قوي.. وهوّ هيفضل أبوكِ برضه، وعمره ما هيعرف إني قلتلك". مسكت وجه ابنتها الغارق في الدموع وأخذت تقبِّلها وهي تقول: "إوْعديني..."

بعدَ لحظات صمتٍ إلّا من الدموع...

"حاضر، أوعدك يا ماما". وعانقتها بقوة...

حضر الأبُ بالقهوة، وضعَها على الطاولة وهو يدندن.. بيضة بيضة.. ويقرص ابنتَه في خدِّها ويقول: "بطَّلوا عياط بقى أنتم أوفر جدًّا..." يحتضنهما معًا بقوة.

ملساءُ الصدر

"كويِّس إن احنا ما قلناش للعيال.. هيقلقوا على الفاضي" قالت لزوجها وهما يتجهان للمستشفى.

"هي أصلًا ساعة واللّا اتنين وترجعي بالسلامة، وهمَّا عند ماما مبسوطين معَ ولاد عمهم، فِش هيحسوا".

يصلَان إلى المستشفى، يأتي طبيبُ التخدير يرحِّب بهما، يثبِّت الحقنة في ذراعها، تأتي الممرضة بورقة للزوج والزوجة، ليوقِّعاها وتخبرهما أن الطبيبَ سيتأخَّر لأنه سينتخب أولًا! تضحك الزوجة بينما تقول: "يعني كده هنعمل العملية بُكره، طوابير الانتخابات مالية الشوارع".

يدخل أخواها ويسأل الكبير: "أنتَ ما قلتيش لبابا؟" تردّ: "لا، لم أقل لأحدٍ لأنها إن شاء الله شيء بسيط.. وأبوك في إيه واللّا فيَ إيه! ده الانتخابات النهارده، أنتم انتخبتم واللّا لسّه؟".

"الصبح بدري انتخبنا".

تدخل الحمّام بينما ينشغلِ زوجُها بحديث السياسة معَ أخويها، ترتدي ملابسَ العمليات، تخرج لتجدَ الترولّي بانتظارها، تطلب منهم أن تسير لغرفةِ العمليات، برفض الجميع ويقولون: "هي دي الإجراءات اللي لازم نتعمل". تستسلم، وتتمدَّد على الترولي، ويأخذونها بعيدًا، بينما زوجها يقول: "لا إله إلا الله".

تفيقُ من البنج وفي ذهنها ذكرياتٌ عن العملية وكأنما أفاقتْ في منتصفها وسمعتِ الطبيب يقول: "إلحقوا..

دي بتهزِّ راسها!". ارتفعت الأصوات حولها: "حمدًا لله على السلامة، حمدًا لله على السلامة". سألت محدِّثها وكان طبيبِ البنج: "هوّ أنا صحيت ليه في العملية؟"، قال لها وقد تسمرت عيناه: "لا.. ده إنتِ بيتهيّألك".

"لا، أنا سمعتكم كويس".

"سمعتِ إيه؟!".. مِن ارتباك نظرته سألته: "هوّ في إيه؟ هوّ حصل إيه؟".

"ما حصلش حاجة، العملية كانت كويسة، هييجي الدكتور اسأليه". وفرَّ من أمامها.

جاءَ الطبيب الجراح، أولَ ما شاهدته ابتسمتْ وقالت: "هوّ انتَ شلت صدري؟" قال بحزم شديد: "أيوه".

شهقت وقالت: "مش معقول!! ليه؟".

"الورم طلع مش حَميد، طلع سرطان، وحواليه دايرة حميدة، عشان كده الأشعات لخبطتنا".

انخرطتْ في نوبة من البكاء الصامت، وهي تقول: "زيّ أمي.. زيّ أمي.. أصبحتُ ملساءَ الصدر زيّ أمي.. الله يرحمها.. الله يرحمها، إزاي بعد عشرين سنة يتكرر الموقف كده بكل حذافيره إزاي؟".

"أديِك مهدئ؟".

"لا شكرًا مش عايزه حاجة، أنا مش قبل ما أدخل قلتلك أهمّ حاجة الحفاظ على صَدر المريضة؟" رد الطبيب وهو يشيح بوجهه: "غصب عنّي والله... احنا اتفاجئنا في غرفة العمليات، أنا لازم أسيبك واخرج لزوجك لأنه مُنهار".

جاء طبيب التخدير وقال لها "هديكي حقنة مهدئة" رفضت رفضا قاطعا "أصر الطبيب وغرز الحقنة في الكانيولا المثبتة في كفها وقال لها "ديه مش حقنة مهدئة ديه بسميها حقنة الرضى".

أخرجوها للغرفة، وجدت أخويها الصبيّين وابنة عمَّتها يسلمون عليها والدموعُ تملأ أعينهم، بينما هي تبتسم وتقول: "خيرًا إن شاء الله". وصلت للفراش في الغرفة على الترولي، وضعوا الترولي بجوار الفراش ونقلوها عليه بالملاءة، استقرَّ مقامها على الفراش والتفتت لتجدَ زوجها يقبِّل يدَها، همست له: "كده يا حبيبي كده!؟".. قال والدموع تملأ عينيه: "مش بيدي والله، غصب عني، دي كانت أصعب لحظة في حياتي".. ابتسمت ولزمتِ الصمتَ وهي تطبع قبلةً على بطن يدِها، ثمَّ تضع يدَها بالقبلة على رأسه.

بعدَ عدَّة ساعات قليلة، ناولها أخوها الهاتفَ قائلًا: "بابا". دمعت عيناها ولكنْ تمالكتِ نفسَها وهي تردُّ وتسمع صوته الحاني الملهوفَ قادمًا من الناحية الأخرى: "كده ما تقوليليش؟"

"معلش يا بابا، أنتَ في إيه واللّا في إيه! أنا عايزاك تطمِّن عليًّا تمامًا، أنا كويسة قوي الحمد الله.. الحمد لله، مشي اليوم إزّاي في الانتخابات؟"

"أنا متأكد.. أنتِ بنتي وأنا عارفك، أمّا عن الانتخابات.. ربنا ييسر الخير".

وهي خارجةً من المستشفى بينما يقود السائق السيارةَ

وزوجُها يردُّ على تليفونات الأقارب والأصدقاء، فتحت محمولها وكتبت من خلاله لولديْها رسالةً على صفحتها على الفيس بوك: "أبنائي.. دخلتْ أمكما المستشفى يومَ الاثنين لإزالة ورمٍ صغير من الصدر، وخرجت.. ملساء الصدر تمامًا، كما حدث مع جدَّتكما منذُ زمن بعيد، إنها إحدى المعارك الجديدة التي ستخوضُها أمكم معكم.. إحدى المعارك التي ستحتاج فيها كلَّ الدعم الإنساني والرباني لتعبُرَها... خطوات كثيرة قادمة، مسح جميع الجسد للتأكد من عدم وجود شيء آخر... علاج كيميائي، وآخر إشْعاعي، تغيرات جسدية كبيرة، أمّا تلك النفسية فربِّي يُساعدني على عبورها.. أُمّكما تحبُّكما جدًّا".

وصلتِ المنزل، هُرِع البوابون لأخْذ الحقيبة ولإلقاء السلام. نزلت من السيارة بينما هي تحمل الدرين الذي يرتبط بجسدِها عبرَ خرطوم مثبَّت في مكان الجرح، يمسك زوجُها يدها وهي تصعدُ السلالم، تلتفت له مُبتسمة وتسحب يدَها من يديه وتستند على السلم.

تدخل المنزل وتتَّجه رأسًا إلى الدولاب الذي تضع فيه الأكياس المقوّاة التي تأتي فيها الهدايا، تختار كيسًا ملونًا زهري اللون، تضع فيه "الدرين"، تحمله، تنظرُ إليه في المرآة، تقع عيناها على الكومود، تتجه بخطوات قليلة إليه، تحمل صورةَ أمها الموضوعة عليه دائمًا، وجهها المسالم الطيبُ وعيونها الذكية في صورتِها الأخيرة قبلَ الوفاة إبّان مناقشتها للدكتوراه وقد توردَ وجهها وانتفخَ من آثار الكورتيزون مع الكيماوي، بعد أن امتد المرض من الصدر الأيمن للصدر الأيسر ثم انتقل للمخ، وكانت

كلمتها لأبيها في حضورها وحضور الطبيب " المؤمنين مش عايزين يعيشوا للأبد، أنا مش هاخد علاج للمخ" لم تفلح محاولات الجميع معها لاقناعها بعكس قرارها، وكانت النهاية الحتمية بعد ستة أشهر من التشخيص بوصوله للمخ وبعد خمس سنوات من بداية المشهد وأمها تبكي في المستشفي في الإسكندرية بينما أبوها يحتضنها ويقبل وجهها ورأسها وهي تقول "شالوا صدري ليه، ليه بس ليه" خرجت من الغرفة وتركتهما وحدهما وأخذت تدور في دوائر في القاعة الفسيحة راغبة أشد الرغبة في عدم العودة لغرفة أمها مرة أخرى.

وضعت صورة أمها مكانها، وهي مدركة تماما أنها بخلاف أمها تريد أن تعيش، تذكرت صديقتها العزيزة التي قالت للطبيب عندماتم تشخيصها "عارف لحظة التخرج" أجاب الطبيب أن نعم، فزادت "إعمل اللي عليك ووصلني ليها أنا عندي ولدين خمس سنوات وسبع سنوات" وقد كان ووصلت صديقتي لتلك اللحظة، كانت أول واحدة من جيلهم يأتيها زائر الظلام.

طبعت قبلة على الصورة التي تحمل، وضعتها في مكانها، ترسم ابتسامةً على وجهها بصعوبة ولكن بتصميم وتخرج من الغرفة.

أخي

إنه يخفقُ ويقفز، ذلك القلبُ بين جوانحه. أكاد أسمعه، أكاد أراه. أرى ذلكَ في عيونه.. في لهفته للجلوس أمامَ بريده الإلكتروني في الوقت المخصص له في بيتٍ مليء بالمتنافسين على استخدام الإنترنت، في المكالمات الطويلة، وهالة الغموض المحيطة به.

يا ربي، هلِ أخذنا الزمنُ سريعًا هكذا عبرَ بوّاباته السحرية؟ منذ أيام ليست بالبعيدة دخل وافدًا جديدًا لمنزلٍ لم يعرف سوى الإناث، فما كانت فرحة كفرحةِ أختيه به وهو متدثر بالأغطية بينَ ذراعي أمه، تلتها فرحةُ ابن خالته، الولدِ الوحيد في الأسرة قبلَ قدوم أخي الصغير.

كم صرخْنا ببهجةٍ ونحن نراقب تفتُّح روحِه في هذه الحياة، وكم ضحكنا عندما افتقدناه في مرقدِه المعتاد وهوِ لم يكمل بعدُ سنته الأولى، وأخذَنا القلقُ وقررنا عدمَ إخبار الكبار حتى نجدَه، وإذا به نائم في دعةٍ تحتَ الفراش فيفزع باكيًا من رؤوسنا المطلة عليه، ومِن ضحكاتنا الهستيرية التي أيقظته من رقدتِه الهانئة.

وبدأ التحدي...

في محاولة الفتى الوحيد التنفُّسَ وسطَ عالم من الفتيات الأحرار، وزادَه محاولة الفتيات- من حيثُ لا يدرين- إيجاد معركةٍ لهنَّ مع قوة هدوئه التي لا حدَّ لها.

"لا تقولي لرجل أبدًا.. لو كنتَ رجلًا افعل هذا، فالخيارُ الوحيد أمامه في هذه الحالة هو إثباتُ رجولته

وإلّا عاش ذليلًا، هل تفضِّلين صحبةَ أذلاء أم صحبة أحرار؟".

"كوني إيجابية، قولي لا يمكنني أن أعتمدَ على سواكِ، وعندها سوف يلبِّي لك مرادَكِ بكل ود".

"هزيمةُ أحد الأفراد في المنزل تضعف المنزلَ بأسْره. من الأفضل لكلٍّ منكم أن يكون الواقفَ إلى جواره بقوّةِ الطود الشامخ، فيشدُّ بعضكم أزرَ بعض. هناك دومًا مساحةٌ للتعايش السلمي".

"لا أحد في هذا المنزل يضطهدُ امرأة، في اللحظة التي يظنُّ فيها أحدكم قدرتَه على ذلك فليعلم أنَّه لا مكانَ له بيننا".

"لا فارقَ في هذا المنزل بين رجلٍ وامرأة. العيبُ على الولد عيبٌ على البنت. المحرمُ على الرجل حرامٌ على المرأة. الجميع عليهم أن يكونوا في المنزل بعدَ المغرب في الشتاء، وقبلَ العِشاء في الصيف، إلا إنْ كنتم معًا. عندها يتّفق على موعد العودة".

"لا أحدَ كبيرًا على الزَّلل، تزلُّ قدمُ الرجل وهو شيخٌ في السبعين. تخيَّر أصدقاءك ولا تحدْ عن مبادئك تحت الضغوط الاجتماعية البلهاء".

"إيّاك أن تخيفَ إخوتك مرةً أخرى بالكائنات الصحراوية التي تصطادها".

"ولم أرَ في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام".

"إن كنتِ تريدين منه أن يأتي لأخْذك من بيت

صديقتك في الوقت الذي تريدين، أفلا يكون من حقه أن يعطَى شيئًا في مقابل ذلك ولو كان بسيطًا، كسؤاله لكِ في يوم إجازتك عقبَ عودته من العمل تحضيرَ وجبة الطعام؟".

"الصراخُ ليس قوة، القوةُ الحقيقية في الحكمة التي تحفظُ ما بينكم، الغضب هو صوتُ اختناق عقولكم في حناجركم".

ثمَّ تسللت الصداقة...

"الرجالُ يفكرون بهذه الطريقة، صدِّقيني، أنا أحيَا معهم كلَّ يوم، أسمعهم، ليس هناك مَن يستحق أن تبكي من أجله".

"طيِّب، سوف أوصِّلك بشرط، نشرب (نخفخينا) معًا في طريق العودة".

"سلمى، شخص اسمه محمد يريدك على الهاتف".

"يا عم.. فتاة اسمها سمية تريدك على الهاتف".

"قليل من الرجال هو مَن يؤمن بصداقةٍ حقَّة تجمعه مع النساء، أنا رجل وأعرف ما أقول".

"بصفتك أخي أحبُّ أن أخبرَك أنك عندما تقول لفتاة: ما الذي أخَّرك؟ لقد قلقتُ عليك؟، فهذا معناه أنك مهتمٌ بها، لو كنت مهتمًا بها حقًّا فهذا أمر آخر".

"أنا لا أدخل أفلامًا عربية، كلها مناظر ولا توجد قصة".

"اتَّفقنا، هذا الشهر فيلم العيد الكوميدي العربي،

والشهر القادم فيلم أجنبي".

"فكّري مرتين قبلَ أن تصرخي في وجهي مرّة أخرى".

"لا تظنُّ نفسَك قويًّا لأنك الرجل، ربّما أقوى منك".

"أنا آسفة".

"هل أعتبرُ هذا اعتذارًا ضمنيًّا منك؟".

"أحتاج الهاتف... صار لك ساعة تتحدَّث".

"البارحة طلبته منك أكثر من مليون مرّة وأنت تُحدثين صديقتك التافهة، ونمتُ قبل أن تنهي حديثك معها".

"لا تتحدَّث عن أصدقائي بهذا الأسلوب".

"أف... مستحيلة".

"يا إلهي... مستبد".

"تصبحين على خير".

"نسيت أن تقول لي البارحة تصبحين على خير".

"لا.. لم أنس، كنت تتحدَّثين في الهاتف فتركت لك وريقةً على باب غرفتك".

"شكرًا".

"عفوًا".

ورسخَتِ المودة...

"حسن، تأخرت.. وهذا أولُ يوم لك في العمل، بسرعة سوف أوصلك".

"ربّنا معك".

"قفي هنا، سوف أعبر أنا الطريق".

"حسن، ممكن أستعير منك20 جنيهًا؟".

"معكَ كم في محفظتك؟ إيّاك أن تسيري بأقلَّ من خمسين جنيهًا، خُذي هذه وإن أنفقتها فأخبريني".

"كيف كانت جلستُك في المحكمة اليوم؟ هل كنت مثلَ الأستاذة فاطمة في الفيلم (والله بريء)؟".

"سلمى، ما حكايتك؟ صارَ لكِ عدَّة أيام صامتة".

"ممكن تقوليلي مَن يكون الدكتور ياسر؟".

"عندما تقول لي أنتَ مَن هي سمية!".

"ممكن تستقبل ياسر عندما يأتي؟".

"أخيرًا سوف يظهر سي ياسر" .

"يا دمّك!".

"ياسر، هذا أخي... الكبير".

"مبروك.. لقد وافق بابا".

"لا تحدَّثي عن شريك حياتك إلّا بتوقيرٍ حتى لأعزِّ الناس، فأنتِ لا تعرفين مَن سوف يذكرُ ما قلت أو متى".

وصقلت الحياة ما بيننا...

"سلمى، صوتُك بعيد.. كيف أحوالُ البرد عندكم؟ سمعنا بموجة باردة تجتاح أوروبا".

"البرد شديد.. فوقَ تصوّرك".

"مبروك التخرج يا حسن، سأحضر لك هديتك معي".

"لماذا لا تردّين على رسائلي الإلكترونية؟".

"أنا قادمة غدًا.. وحدي".

"لماذا لم تشيري للمحنة من قريب أو بعيد؟".

"الأمل أحيانًا والرجاء غالبًا".

"اتركي هذا الأمرَ وراءك".

"رجاء، لا تدعْهم يتكلمون عنه بصورةٍ سيئة، ما كانَ قد كان. لن تعيد الإساءةُ إليه البيتَ الذي فقدته".

"سلمى، هل قرأت بريدَ الأهرام؟ المشكلة نسائية جدًّا اليوم".

"حسن، اقرأ ملحق السيارات، فبه كلمة عن سيارتك".

"أنا قادم في الطريق، ممكن تسخّني لي الطعام لحين عودتي".

"غالٍ والطلب رخيص".

"صباحِ الخير، هيّا استيقظي، فقد اشتريت الطعمية والإفطار جاهز".

كبرَ الفتى النقي، كبر الصديقُ والأخ، ولكنه كان دومًا كبيرًا، وهدوءُ طفولته وشبابه دليلُ ذلك. ولكنْ لم لا يتحدّث عنها؟ من هي؟ إنها المرةُ الأولى التي يحيد فيها عن الحديث معي إلى الصمت. أعلم أنه ابنُ أبيه سوف يقودها لطريقِ قلبه بهدوءٍ وأناة. سوف يكرمها ويحسنِ إليها. في حفلاتِ الاستقبال سيأخذ منها الصحنَ الفارغ ويضعه على الطاولة. سوف يمدُّ لها يدَه

مساعدًا وهي تخرج من السيارة. سينظر في عينيها مع كلّ كلمة يقولها لها. سينصتُ إليها ولو كانت تتحدّث عن لون السماء أو حرارة الشمس. سوف تبرقُ عيناه بالابتسام في كلِ مرّة تلتقي عيونهم. سيشركُها في أمره كلّه وإن صغر. سيدفعها برفقٍ لتكون لها إنجازاتُها الخاصة وذاتُها المستقلة. لن تهدّده قوتها وإنما ستزيده قوة. إنه أخي الكبير الصغير وأنا أعرفه.

هل تكون هي كأمّه يا تُرى؟ كالنسماتِ الرطبة في قيْظ الصيف. تنصت وقتَ الإنصات ولا تعترض على صنيعٍ أو قولٍ له أمام كائن من كان. وتحمرّ وجنتاها كلما رأته. هل تصبرُ وتتحمّل روحه الحرةَ ونفسَه التي لا تنحني إلّا لبارئها؟ هل تذهبُ معه أينما ذهب وتكون الصديق والرفقة الحانية؟

وجاء... كما جاء أولَ الأمر.. منذُ ما يزيد عنْ عشرين سنة، بخفّة وهدوء، جالبًا معه البِشْر والسعادة...

"سلمى، عندك دقيقة؟".

رفعتُ رأسي من رقدتي على الفراش ناظرةً إليه... يا إلهي، لقد مرّت سنوات وسنوات.

"لو المسألة جدّ.. عندي عشرة".

ابتسمتْ عيناه وقال: "جَدّ جدًّا"

وهو يحكي.. نظرتُ بعيدًا.. ليتَ أمَّ الفتى هنا لتسعدَ سعادةَ أخته به.

بيت مدينة نصر

هواءُ شهر مارس ينشط، تهتزُّ أوراق أشجار مدْخل المنزلِ ذي الدّورين، الواقع في ضاحيةِ مدينة نصر. تكاد الزهورُ الحمراء التي تحملها الأشجارُ المزروعة حولَ المنزل أن تتفتَّح. ظهرت أجزاء حمراءُ من كلٍّ زنْبقة مختلطة بلونِ الأوراق الخضراء لتُضفي لمحةَ دفء على مدخل المنزل الأبيض.

يفتح البابُ. يسمع صوتُ سيارة إسعافٍ بعيدة، يعمل البوابُ بسرعة على فتح الباب على مصْراعيه. يقترب صوتُ عربة الإسعاف، تقف العربة في مدْخل المنزل. ينزل ممرِّضان بكرسي متحرك، يأمرُهما البواب أن يقفَا على مدخلِ المنزل، وأن لا يصعدَا السلم "الهانم نازلة". أصوات وجلبةٌ داخلِ المنزل، تظهر امرأةٌ ممتلئة القوام ذاتُ وجه أبيضَ مُشرب بحُمرة قوية رغمَ عدمِ حرارة الجو، مستندةً كليةً على رجُل أسمر، غطى الشيبُ رأسه، مستوي القوام، هو شبهُ مُحتضن لها كليًّا، لجسدُها يتحرك بناءً على حركة جسده هو: "أنت عارف، كتاب من الكتب اللي جبناهم من أمريكا كان بيقول إنّ الميّه اللي عندي مركزها نصف الدماغ، فهي وسط فصوص المخ الأربعة، وبتتحرك، فأحيانًا البصر يتأثر.. وأحيانًا الحركة، وكده يعني".. "عارف يا حبيبتي".. "أصل ده حاصل دلوقت".. "إيه اللي متأثّر بالضبط؟".. "أنا مش شايفة".. "طب مسْنودة عليًّا كويّس؟".. "أيوه".. "طب ما تخافيش. خليكِ ساندة".. "همّا هيشيموني على نقّالة؟".. "لأ، أنا طلبتَ كرسي بعَجل"..

"هوّ إحنا رايحين مستشفى؟".. "أيوه يا حبيبتي، زي ما اتَّفقنا".. "أنا تعبت قوي".. "معلشِ يا نور عيني".. "طب حاسب بقى آلّا نور عينيك اتعمت". يضحكان ببساطة.

***

يفتح بابُ الشقة بعنف، تجري الزوجةُ إلى الداخل، يعلو صوتها وهي تطرق جميعَ أبواب غرف النوم: "ولاد ولاد... إحنا رايحين المستشفى، الإسعاف جاية... أبوكم تعبان". تفتح الأبواب المغلقة ، أصواتٌ كثيرة: "إيه!"، "إمتى ده حصل؟"، "إيه الحكاية؟". لا تردّ.. وتجري بسرعة لتصعدَ للدور الثاني حيث تركت الأبَ والجميع خلفها.

***

"أنا مش عارفة أنا فين!".. "إحنا في المستشفى يا أمي".. "أبوك فين؟".. "راح المكتب وجايّ بعد الظهر".. "أختك فين؟".. "في الجامعة".. "أنا مش بتحرَّك! مش كده؟".. "أنا مش عارفة يا أمي، أنتِ مش بتتحرَّكي علشان مش عارفة واللّا علشان مش عايزه؟".. "بصراحة.. الاتنين، ساعات مش عايزه، وساعات مش عارفة". تحتضنها وتقول: "أنا بحبك قوي".. "وأنا كمان". وهي تربِّت بيدها على ظهر ابنتها بخفة: "عايزه أتوضَّى، اسنديني ودِّيني الحمام".. " حاضر". تتكئ الأمُّ على الابنة قويةِ البنية، تسيران ببطء حتى الحمام، تستند الأمُّ على الحوض ثمَّ تقع، تصرخ الابنةُ وتجهش بالبكاء: "ما تعيَّطيش.. ما تعيَّطيش".. " أنا خايفة يا أمي".. "لأ ما

تخافيش.. أنا عارفة كلّ ده.. أنا عارفة اللي هيحصل".. "إيه اللي هيحصل؟".. "حاجات كتير هقولك عليها لما تقومِيني من على البلاط الساقع ده". تضحكان.

***

الأب مسجًّى على السرير في غرفةِ الطوارئ، الأبناء جميعًا في غرفة الانتظار، تخرج الزوجة و تقول: "لسّه الدكاترة مش سامحين بالزيارة".. "أنا قلقانه عليه قوي"، تقول إحدى البنات. تردّ الزوجة: "إن شاء الله، كلُّ خير". تجهش أخرى بالبكاء: "أنا السبب، الأب اللّي اِدّاني كل حاجة ما اِدّيتهوش إلّا وجعِ القلب.. سامحني يا بابا، سامحني". ويشتدّ بكاؤها، تربِت الزوجة على كتفها وهي تشيح بوجهها، ويصمتُ الجميع.

***

"هوّ مين اللي على الباب ده؟!".. "محدِّش يا ماما".. "يعني ده مش أبوك؟".. "لأ. بابا معادُه مش دلوقت".. "إزّاي!؟ مش إحنا المغرب؟".. "أيوه، بسّ هوّ بيصلّي المغرب وبعدين ييجي.. وبعدين هوّ مفيش غير بابا كلِّ شوية تسألي عليه!؟ أنا مش كفاية واللّا إيه!".. "هو في حَد زيّ أبوك".. "أيوه يا سيدي.. هوّ فين علشان يسمع!".. "عارفة! أحلى أيامنا كانت في السعودية".. "سعودية إيه يا ماما بس.. دي بلد كئيبة".. "بالعكس، على قدِّ ما رُحنا بلاد ما قعدناش معَ بعض قدّ ما قعدنا مع بعض هناك".. "أيوه يا عم.. أنت والدكترة، شغل على كبير".. "بسّ يا قليلة الأدب". يدخل الأبُ وفي يده كيس هدية، يسلِّم على الابنة ويحتضنها وينحني مقبِّلًا

الأمَّ وهو يمدُّ يده ليرفع يدَها إلى فمه مقبلًا ويظلُّ ممسكًا بيدها، تحاول سحبَ يدِها، فيقول: "ليه؟ أنا عايز أمسكها شوية!". يمدّ يده ويُخرج من كِيس الهدية علبة قطيفة حمراء، يفتحها ويتناول الخاتمَ الذي بها ويُلبسه للأم. تبتسم وتقول: "الله! حلو قوي ده.. بسّ بمناسبة إيه؟".. "عيد جوازنا".. "يا... أنا نسيت.. نسيت كلّ الأيام".. "أنا عارف. بسّ أصلًا أنت مش لازم تفتكري.. أنا اللّي لازم أفتكر، لأنّ أنا اللي ربنا أكرمني".. "معقول.. معقول الكلام ده!".. "طبعًا، وكمان لو عايزاني أجيب المأذون من أوّل وجديد ونتجوِز تاني دلوقت، أنا مستعدّ.. ها! يلّا بينا!؟". تضحك وقد تضرَّج وجهها بالحمرة.

***

تزيحُ الابنة الستارةَ المؤدية لغرفة الحالات الحرجة، تجد الأبَ أمامها نائمًا في الفراش: "صباح الخير يا بابا".. "صباح الخير".. "ممكن أبوسك؟".. "بلاش علشان الخراطيم".. "أنتَ كويس طيب؟".. "الحمد الله". ويُغمض عينيه وهو يشيح بوجهه. تغادر الابنة الغرفة وتخرج وهي تبكي وترتمي في أحضانِ أخيها الأكبر في غرفة الانتظار وهي تقول: "مش هيسامحني أبدًا".

***

"أسبوع الآن وهي لا تتكلم ولا تتحرَّك، ولا تلتفت إلّا إليك يا بابا" يقول وهو يجرّ كرسيًّا إلى جوار فراش زوجته المريضة ويمسك بيدها مقبِّلًا: "معلش، ده طبيعي".. "أنا مش عارفه هي سمعانا واللّا لأ؟".. "ولا

أنا يا بنتي".. "طيِّب تفتكر هي موجوعة؟".. "إنْ شاء الله لأ".. "وبعدين يا بابا.. أنا خايفة عليها قوي".. "ما تخافيش، أمّك ستّ قوية، وفي النهاية.. مَن لم يرضَ بقضائي فليخرج من تحت سمائي، وليعبد ربًّا سواي".. "حدّ من الدكاتره قال لك هيحصل إيه، أو تطور الحالة هيكون إيه؟".. "لأ ما حدِّش، يمكن الوحيدة اللي ممكن تجاوب على السؤال ده هي أمك، دي قرأت يمكن 50 كتابًا عن السرطان، وكانت طوال رحلتنا لأمريكا تشرح لي ما المتوقَّع وما سيحدث". تقول الأم فجأة وعيناها مازالت مُغمضتين: "التطور الطبيعي هو فشل أعضاء الجسم جميعًا ثمَّ الموت". تصرخ الابنة: "ماما، أنتِ اتكلمت!" وترتمي عليها مُحتضنة.

***

"أبوكم لازم يسافر برَّه".. "ليه؟".. "القسطرة أثبتت إنّ فيه حاجة لعملية قلب مفتوح".. "طب وهوّ عايز إيه؟".. "هو هيعمل اللي الدكاترة تقول عليه".. "طب وإمتى السفر؟".. "عمّكم بيعمل اللازم".. "ممكن نشوفه دلوقت؟".. "ممكن، بسّ واحد واحد".

***

"ماما".. "ماما".. "ماما".. "ماما".. "بَطَّلي زنّ". تحتضنها الابنة وتقول: "طب مدام قادرة لي مش بتتكلمي؟".. "مش قادرة.. والله مش قادرة.. بسّ زهقت من زنّك.. أبوك جَه النهارده؟".. "أيوه يا أمي كالعادة مرتين، الصبح والظهر، ولسَّه هييجي بالليل".. "وحشني قوي".. "طب قوليله كده لمّا ييجي".. "لو قدرت..

افتحي التلفزيون شوية".. "حاضر". يشاهدان معًا فيلمًا لعبد الحليم وعبد السلام النابلسي حيث يُعطي الأخير دواءً منومًا، على سبيل الخطأ لبطلة الفيلم فتنام في محطة القطار، تتثاءب الأم وتقول: "يظهر عبد السلام النابلسي حدفلي حبّاية" تضحكان.

***

"السفر بكره إن شاء الله".. "هترجعوا البيت؟".. "لأ هنطلع من المستشفى على المطار".. "طيب في أيّ ترتيبات محتاجينها؟".. "لأ، بس عايزه حدّ منكم يقعد ساعتين هنا لحدّ ما اروح البيت أحضَّر الشنط".. "دي سهلة.. تحبي حدّ يوصَّلك؟" تومئ أنْ نعم للابن الأكبر. تدخل لإحضار حقيبةِ اليد من غرفة العناية المركزة، يأخذها الأخُ الأكبر ويختفيان عن الأنظار المتعلِّقة بهما في غرفة الانتظار.

***

الحرارة مرتفعةٌ ولا تنخفض، تقوم الابنةُ الكبرى بعمل كمّادات للأم ولكنْ لا تأثيرَ لها. تظلُّ تحتضن الأم في الذهاب والرَّواح وتتمتم: "سمعاني يا ماما؟".. "أنا بحبك".. "سمعاني؟".. "خلِّيكِ معانا".. "سمعاني؟".. "كلنا بنحبك". الأم لا تتحرَّك ولا تتكلم. نقطة بيضاء صغيرة كاللؤلؤة تخرج من فمِ الأم، تمدّ الابنة يدها بالمنديل لتمسحَها، تلتفت لتضعه في سلة القمامة، تنظر للأم لتجدَها ساكنة تمامًا ولا أثر للتنفس: "ماما".. "ماما.. يا مس... يا مس". تدخل الممرضة: "في إيه؟".. "مش عارفة! ماما ما لها؟". تتحرك الممرضة في اتجاه الأم، تخفي

عليها، ثمَّ ترفع رأسها وتقول: "إنّا لله وإنا إليه راجعون". تحتضن الابنةُ أمّها وتعتصرها بين يديها بينما تغادرُ الممرضة. يدخل الأب يجدُ الابنةَ منكفئة على أمها، ترفع الابنة رأسها، تلتقي أعينُهما، يفهم الأب، ينحني مقبِّلًا رأسَ الأم.. يدَها.. كتفيها، وهو يقول: "حتى نلتقي يا حبيبتي.. حتى نلتقي يا حبيبتي.. حتى نلتقي يا حبيبتي".

***

تقف السيارة المسرعةُ أمام صالة السفر رقمَ واحد في المطار، تتبعها سيارةٌ أخرى، تقف هي أيضًا، يأتي أحدُ العمال مسرعًا بكرسيٍ متحركٍ، يسندُ الابن أباه ويساعدُه على الجلوس في الكرسي، ينزل أحدُ الأبناء الآخرين الحقائب، يقبل كلٌ واحد من الأبناء يدَ الأب، يقول الأب وهو يتجنَّب النظر في عينِ أيٍّ منهم: "خلّوا بالكم من بعض". تدفع زوجته الكرسي ويتَّجهان لبوابة الدخول.

t.me/yasmeenbook مكتبة ياسمين

***

تدخل الممرضاتُ مُسرعات، يضعنَ ملاءة بيضاء حول جسدِ الأم، يأتينَ بدفتر ويكتبن بقلم فولمستر أزرق رقمًا في الدفتر، ونفس الرقم يكتبنَه على الملاءة التي تغطي صدرَ الأم. يصطفُّ المصلون لصلاة الجنازة، يؤم الأب الجنازةَ ويتهدج صوته، وبعد أن أصرَّ أن يؤمَّ هو الصلاة عليها يقول: "ساووا صفوفكم يرحمكم الله.. إنكم تصلون اليوم على امرأةٍ ليس كمثلها بينَ النساء نساء".

إنَّه هواء الربيع المحمَّل بنسماتٍ ساخنة، نهاية مايو،

تفتَّحت جميع الأزهار الحمراء التي تحملها الأشجار التي زرعتها الأم بيديها حول مدخل المنزل الأبيض في حيِّ مدينة نصر، شجرة الياسمين الصغيرة أزهرتْ ورحيقُه يملأُ المدخل. الهواء يهزُّ أوراق الشجر مولدًا موسيقى هادئة تشبه وشوشةَ الأحبة.. كلٌّ شيء هادئ.. لا أصوات كلاكسات، ولا أحد يسير في الشارع.. باب المدخل مغلق.

المسافر

اتَّصل بي أخي الصغير وهو يقول: "فاضية النهارده؟ هعدِّي عليكِ بسرعة".. "ماشي يا سيدي، لما نشوف". وكعادته لم يمر.

في اليوم التالي، طلبني: "أنتِ فين؟".. "في الشغل".. "طبّ بصِي، أنا على الكوبري، طيارتي كمان 3 ساعات، معنديش حدّ يوصلني، ممكن توصَّليني؟".. قلت له: "طبعًا". لم أخُض في تفاصيل مثل: "وإزاي ماشي كده بسرعة؟" أو "طب إزاي ماتقولّيش إنك مسافر؟"، ولا "مالحقتش تقعد مع ولادي، عايزاهم يعرفوا خالهم"، ولا حتى "راجع إمتى؟"! تذكَّرت كلمة أبي "كلّ واحد منكم مملكة مستقلة". يقولها أحيانًا بغضب، وأحيانًا بسعادة حسبَ الموقف. أخبرت مديري أني سأغادر اليومَ ساعة مبكرًا، وذهبت.

ذهبتُ إلى منزل أبي، سلَّمت وسألت عن أخي، لم يعدْ بعد، كلَّمته، قال:" لسَّه على زفت الطين كوبري أكتوبر!". لم يكن بدٌّ من الانتظار وأنا غيرُ متخيِلة أنَّ طائرته في الخامسة.. والساعة الآن الثانية، خاصَّة وأن علاقتي بالكوبري وثيقة جدًّا بعد مشوار صباحي ومسائي عليه في طريق العودة والذهاب إلى العمل يوميًّا، وأعلم تمامًا ما تعنيه الزنقة على كوبري أكتوبر.

دقائقُ وجاء مهرولًا، سلَّم وهو يركض، أخذ الحقيبة وقفزَ مقبِّلًا أبي وزوجته وجرَّني من يدي وهو يقول:"يلّا اتأخرت جدًّا". ذات الفتى الذي كان يقول لي وهو

طفل "ماما الصغيرة" أصبح رجلا كبيرا ولكنه لم يكبر في عيني أبدا.

قفزَ إلى عجلة القيادة وهو يقول: "أنا هسوق". ونحن في الطريق إلى المطار حدثَنا أبي في الهاتف وقال عبر السماعة المفتوحة: "طمنيني على أخوك لما يوصَل المطار ويركب الطيارة". أغلقت الخط فإذا بأخي الجالس إلى جواري يجهشُ بالبكاء، "ما لك فيه إيه!؟" تمتمَ بعبارات كثيرة خرجتْ منها بجملة مَفادها "صعبان عليَّا أسيبه وهو في السنّ دي". رددّت بكلام لا أذكره... كله تهريج في تهريج. وصلنا المطار وسافر.

ثقلَ قلبي ثقلًا شديدًا وأنا أذكر أيامَه في البحث عن عملٍ في القاهرة، تخرَّج بتقدير جيد جدًا تراكمي من طب أسنان، باتصالاته عبر الإنترنت تلقّى تدريبًا صيفيًا لمدة 3 سنوات متَّصلة في إنجلترا إبّان إجازاته الصيفية في مدينة شيفلد الإنجليزية الشهيرة، وبعد التخرج تدرَّب بمصرٍ في عيادات عدةٍ لأساتذته، كان أكبر مبلغ يأخذه شهريًا هو مائة جنيه، وعادةً ما كان يصرفها على موادّ يحتاجها العمل.

بعدَ تدريب طويل شرعَ في البحث عن عمل، شاهدت خيباتِه الواحدةَ بعد الأخرى، مرةٍ يذهب لمستشفى شهير ويقول له الطبيب المختص: نريدكَ بدوام كاملٍ والمرتب 300 جنيه في الشهر! وعندما يناقش المرتبَ يكون الردُّ أنَّ هناك كثيرين يريدون هذا العمل. فيخرج بغير عودة. وتطلبه أستاذتُه للعمل معها في العيادة بدوامٍ كامل، نتَّفق معه على نسبة من

الربح في البداية، ثمَّ في أول يوم عمل تقول له، لا نسبة ربح... مرتَّب ثابت 300 جنيه في الشهر، فيخرج ولا يعود. وعندما أقول له: "طب ماشي، خدِ المرتب، ده كويس، أنا أوّل مرتب أخذته كان 150 جنيهًا، بسّ الكلام ده كان سنة 1991". ينظر إلي وينفجر ضاحكًا. تحول الحديثُ إلى مقالة سابقة لإبراهيم عيسى في جريدة الدستور، تحدَّث فيها عن أجور العاملاتِ في مصر، والأرقام المذهلة التي لم ينبرِ مسئولٌ واحد لنفيها أو لتفسيرها، تفني العاملة عمرها في العمل في المصانع ليكون أجرُها في النهاية 160 جنيهًا في الشهر، هذا إذْ لم تخضع لخصومات لأيّ سبب كان.

عندما انفصلَ عن صديقة له كان ينوي الزواجَ بها، أخبرني أنهم عالم مجانين، عايزين شبكة بخمسين ألف ومهر وقصص كبيرة، أضاف متسائلًا: "مش أمّك برضه إجَّوزت أبوك برُبع جنيه، وعمك اللي جاب الشَّبكة على حسابه حتى من غير ما يقولّهم؟ لما هيّ عايزه كلّ ده كانت بتحبني وتمشي معايا ليه؟ كفاح بقى وقصص مش عايزه، ده انا بقولها لحدّ الزمالة ما تيجي، يعني سنة أو أقل، أحُط رجْلي على السكّة بس، يلّا ربنا يسعدها". لم تسعفني الكلمات، لقد تزوَّج أبي وأمي فعلًا ككلّ أبناء جيلهم في ظروف مادية، أقلّ ما يقال عنها إنَّها ليست باليسيرة، ولو كنت أنا مكانهم ما اتَّخذت مثل هذا القرار، ولكن أجواء الستينيَّات كانت مُفعمة بالأمل.

تطلبه طبيبةُ أسنان يعمل زوجها أستاذًا بالجامعة،

سمعتْ عنه وأرادته لإدارة عيادتها حيث سيسافر زوجُها إلى الخليج ولن تتمكنَ من مواصلة العمل لتعتني بالأولاد في غياب الزوج. نتّفق معه على نسبةٍ من الربح، وعندما يمر أولُ شهر ويأتي الربح كبيرًا، تتراجع وتقول: "لأ.. مرتب ثابت". يغادر بغير رجعة.. "كلمتها مش واحدة"، بالعربي كذابة، هذه كانت كلماته عندما أتى للغداء في منزلي بعد مغادرته عيادتها.

كان أبي صامتًا.. يراقب، لم يكنْ أخي لِيقبَل أن يساعده أبي في البحث عن عمل، أليس هو مَن يرفض الزواج "علشان مش همدّ إيدي لأبويا آخد منّه شبكة ومهر.. كفاية اللّي عملوا علشانا". ولكنْ شابَ صمتَ أبي حزنٌ لم يكن باستطاعته أن يخفيه، عندما اتصل بأخي أستاذٌ تدرَّب معه في إنجلترا ليعرضَ عليه عملًا هناك لمدة ثلاثة أشهر بديلًا لطبيب غادرَ في عُجالة، قال أبي في هدوء لأخي: {وفي السماء رزقكم وما توعدون}.

سافر، وطالتِ الأشهر الثلاثة، كان أصغرَ مَن أخذ الزمالة، وأصغرَ مَن نجح في المعادلة الإنجليزية لشهادته، لم تكن جنسيته المصرية لتمكِّنه من العمل في ظلّ قوانين العمل التي تبنّاها الاتحاد الأوروبي، إلى أن تقدَّم لوظيفة لم يتقدّم لها إنجليزي، ولا أحدُ مواطني الاتحاد الأوروبي، فكانتْ من نصيبه هو. اتَّصل بأبي بعد امتحان الوظيفة وهو يقول له: "مش هتيجي؟". فردَّ أبي: "إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كنْ فيكون". وقد كان، حصلَ على الوظيفة بعقد لمدة عام، أمّا أستاذه الذي استقدمَه فقد توفّاه الله بعد ذهاب أخي بشهرٍ واحد.

حضر أخي الجنازة التي كانت تتضمَّن طقوسَ حرق الجثة كما أوصى الرجل.

اتزنقت في العودة على كوبري أكتوبر.. هو أصغرنا نحن الخمسة، كنّا إذا اختلفنا تنحّى بنفسه جانبًا ليدفعنا جميعًا لإخراجه من عزلته مما يحدونا إلى الكلام معًا ونسيان الخلاف، وكان دائمًا ما ينجح في ذلك.

عندما توفِّيت والدتنا وهو بعدُ في الصف الأول الإعدادي، وعاد إلى المنزل ليجدَني فيه وقد كنتُ ألازم أمي في المستشفى، قال متسائلًا: "إيه اللّي جابك!؟". ونظر إلى نظرته التي لم تغيِّرها السنين، فقلت له وأنا أشيحُ بوجهي: "إنّا لله وإنا إليه راجعون". دخل الحمام، ولم أره يبكي بعدَها، ربّاه.. كم كان صغيرًا!، حقيقي خرج من الحمام بعد 15 دقيقة وعيونه متورمة من البكاء، ولكنه حقيقة لم يخرج منه حتى اللحظة.

عندما سافر أولَ مرَّة كتبتُ له في بطاقة صغيرة: "لن أقول لك لا تذهب ولكنْ أقول عُد.. عُد يومًا لهذا البلد..". وهو ما كتبته من قبْل لأخيه الأكبر الذي سبقَه في الرحيل لأمريكا للحصول على درجة الدكتوراه في الصيدلة.

أعلمُ عِلمَ اليقين أنه لن يعود، لا هوَ ولا أخوه الأكبر، ولا كلُّ مَن ذهب. عندما حدثت أزمةُ الهجرة غير الشرعية، خرج علينا أحد الخبراء الإستراتيجيّين بنظرية جديدة مَفادها أنَّ الشباب يريد أن يهاجر كونه مبهورًا بنمط الحياة الغربية، فلما قاطعَه المذيع قائلًا: "حضرتك دول بيتكلِّموا عن 300 جنيه..." قال الرجل: "لو على

التلتمية جنيه يلقوها في مصر". طبقة الأوبسون والسيرما التي لا تعرفُ من أمر هذا البلد شيئًا سوى نادي التريبل سي في الزمالك!

حادثة على الكوبري، آه.. هذا هو سببُ العطلة، مرسيدس مع بي أم دبليو، عيال صغيرة سايقة، مات الجميع، إسعاف وهلمَّ. تعطلنا في الطريق قرابةَ الساعتين.

دخلتُ المنزل، احتضنتُ زوجي بقوة، وحملتُ ولدي الصغير واغرورقت عيناي بالدموع وأنا أتخيَّله يحمل متاعَه ويرحل بعيدًا، إما في طلب للعلم أو الرزق أو غيرهما. حدَّثت نفسي أنه لا بدَّ من تغيير العبارة التي أكتبها للمسافرين، بدلًا من "عُد يوما" قد أكتبُ لولدي إذا ما حانتِ اللحظة "عش سعيدًا أينما كنت".

الأختان

رحلةٌ طويلة ومرهقة، أتتْ من باكستان حيث تقيم وتعملُ في الجامعة الإسلامية إلى لندن، استبدالُ طائرات في دبي، مع انتظار سبع ساعات للّحاق بالطائرة الأخرى. آخرَ ما كانت تتمناه هو هذه الرِّحلة بعدَ انتقالها من منزلٍ لآخر مع كلِّ ما رافق ذلك من مجهود وتغييرات، ولكنْ تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، تدفع دائمًا ثمنَ قرارات أختها.. لا شيء يتغير، يمر الزمن والثانية تفعل ما تريد، وجميعنا نجُرّ معها لما لا نريد. حملٌ متكرر، واحدٌ وراء الآخر، لم يعد جسدُها الضعيف يتحمل، لَمَ لم تكتفِ بطفلين مثلي ومثلَ أمّنا.

نسيت كلَّ التعب وهي تضمُّ أختها بين أحضانها في المستشفى، ولدت أختها ولادةً مبكرة لارتفاع مفاجئ في ضغط الدم، وأتت سلمى لتمضي معها عدةَ أيام، بناءً على طلب الأب.

ذهبتَا إلى غرفة الأطفال المبتَسرين، فإذا بكائنٍ صغير لا يتجاوز وزنه 600 غرام مسجًى في الحضانة، مدت أختها يدَها إلى داخل الحضانة، وأخذت تلاعبه وهو كالقططِ حديثة الولادة، مُغمض العينين ويتحرَّك في المجهول، وإن بدَا مطمئنَّ البال. قالت أختها إنَّ الأطباء طلبوا إليها أن تحدّثه أو تغني له ما اعتادتْ أن تفعله لإخوتِه وهي حامل به، حيث إنَّ الطفل في بطن أمه يألفُ الأصوات التي يسمعُها، خاصَّة صوتها هي. و"لما كنتُ لا أحفظ أيَّ أغانٍ، ولا أذكر من قصص بابا لنا قبلَ النوم سوى أسماء مبهمة، الجنينة المسحورة، السحلية

نملية، القط مشمش، البلية حنتوسة، فقد قرَّرت أن أقرأ له القرآن، وهو ما أفعله عادةً مع الأولاد قبل النوم، ويظنّ الجميع هنا أني أقرأ قصة بسّ طويلة شوية".. ضحكنا.

"أنا مش هنام".. تعاند الصغيرةُ أمها، تحاول الأمُّ أن تجبرَ الصغيرتين على النوم، وصغراهما تعاند، تنتظر الأبَ الذي لا يدعهما تنامان إلا بعدَ أن يقرأ على مسامعهما قصةً قصيرة، تنتهي عادة بوجْه الأم يطلّ من وراء الباب داعيًا الأب للعشاء بابتسامتها العذبة وهندامها المنمَّق. تأخَّر الأب اليومَ فتتمرَّد الصغيرة على النوم على أمل قصةٍ تنقلها لعوالمه المسحورة.

نأتِ الأختان عن بعضهما منذ زمن بعيد. بعدَ اجتماعهما معًا في منزل أبيهما صغيرتين، ثمَّ شابَّتين، ثمَّ امرأتين كلٌّ في بلدٍ. أب وأم من الصعيد، ترمَّل أبوهما عليهما وهمَا بعدُ جدُّ صغيرتان، لم يتزوَّج مرةً أخرى حتى ألحتَا عليه بعدَ تخرُّجهما وعمل كلٍّ منهما في دولة مختلفة. جاهدَ الأب الذي يعمل بالطب لتربيتهما بصورةٍ رفضها كلٌّ مِن أقارب أمهما رحمها الله وأقاربِ الأب أيضًا. كان مثقفًا، متجاوزًا لموقف أهل الصَّعيد التقليدي من النساء، يتحدَّث ثلاثَ لغات، ورث كثيرًا من الأرضِ الزراعية، وذا هيبةٍ في بلده ووسط أهله، فلم يجرؤ أحدٌ على الاعتراضِ على طريقته في تربيتهما، وكانتِ التعليقات لا تُقال إلّا أمام البنتين في غياب الأب.

"يا ولداه على العيال، لحمة طريَّة، بكره أبوهم يتجوِّز،

صغيَّر لسَّه". تبادلتِ النساء الحوارات في عزاء الأم التي رحلت فجأة بدون مقدّمات. تتجوَّل الصغيرتان، يسمعانِ الحوارات، يملأ المجهولُ قلبيهما بالظلام، لا يعرفانِ ما الذي سيأتي به الغد. بعدَ انفضاض المعزين، توجَّهت الصغيرة بكلِّ ثبات لأبيها: "بابا، طنط خديجة بتقول حضرتك هتتجوِّز".. ابتسمَ وضمهما وهو يقول: "مش هيحصل يا ولاد، ده بيت أمكم وهيفضَل بيتها طول ما أنا عايش".

فرَّق بينهما ما كان يجب أن يقرِّبهما أكثرَ من أيِّ شيء آخر، فقدانُ أمهما، الذي دفع الأبَ لبناء استقلالهما بلا هوادة. تحمَّلتا مسئولية البيت مع أمِّ هاشم، وقامتا بكلِّ شيء وحدهما دون عمَّة أو خالة. الاستقلال الذي منح لهما كبرًا على حساب علاقتهما، كبرَ بينهما صانعًا سدًّا منيعًا لا يسمح لإحداهما باللجوء للأخرى، تباعدتَا رغم كلِّ محاولات الأب ليبقيَا قريبتين من بعضهما البعض.

في طريق العودة من المدرسة، وهما تسيرانِ بجوار بعضهما البعض تضربانِ الأرض بأقدامهما القوية، وتحمل كلٌّ منهما حقيبة المدرسة بكتبها الكثيرة، يسمعان جارهما التاجرَ العجوز يضرب كفًّا بكفٍّ وهو يقول: "يا ولداه! مين فيكِ يا مصر هيجوز الرجالة دي!". لم تفهما لمَ يقول عليهما "رجّالة".. وعندما سألتَا أباهما ضحكَ ملء فاهه، وقال لهما: "لما تزوَّجت أمكما، سألت عنها بعد أنْ رأيتها فقالوا لي ليه تتجوِّزها، دي جَدّ جدًّا زيِّ الرجالة، فَدِي حاجة تسعدني إنكم زيِّ أمكم".

تنظرُ سلمى لأختها في الفراش، صغيرة رغمَ الزواجِ والحمل وأربعة أطفال، مازالت تلك الطفلة ضئيلة الجسم التي ماتت أمها وتركتها معها، نفسُ الطفلة التي رفضت مساعدتها لها دائمًا ورفضت اللجوءَ لها، التي رفضت أن تصارحَ أختها بوضع حملها مما اضطرَّ الأب لمكالمتها لتذهبَ لها، صديقتها نهى كانت دائمًا ما تأتي لسلمى بمشاكلِ الأختِ الصغرى وتغضب الأخيرة: "ماطلبتش مساعدة حَدّ".. بينما سرحت سلمى في ذكرياتِ طفولتهما وشبابهما فتحت أختها عينيها وقالت: "شكرًا إنك جيتِ". ردَّت سلمى: "لم أكن لأسامحَ نفسي إن لم أفعل". ابتسمتْ أختها وهي تغمض عينيها مجددًا، وتستسلم للمهدِّئات التي أعطاها لها الطبيب.

"هتسافري ورا أختك، تدخُلِي نفس الجامعة". وأضاف: "ما تسيبوش بعض أبدًا". ردَّت بعنفها المعهود: "مش عايزه أسافر معاها في نفس المكان، هي فاكره نفسَها أُمي، وأنا أمي ماتت". يترك البابَ من يده، يقوم ويحتضنُها بينما هي تنهمرُ في البكاء، يقول: "معلش أنا هطمِّن كده، وهفضل رايح جاي عليكم، بسّ افضلوا مع بعض".

اشتركت سلمى وأختُها في كثير من الأحاديث، أتيتَا بالماضي السحيق وسحقتَاه معًا، زارتَا الصغير معًا في الحضانة، وبرؤيته هكذا صغيرًا ضعيفًا مقاومًا، صغرَ كل ما كان بينهما أمامَ هذه الحياة، أمامَ معجزة ميلاد في الشهر السادس.

في المنزل، بعدَ ساعات المستشفى، لعبتْ سلمى مع

أطفال أختها، طبخَت معهما، حكتْ لهما حواديت قبلَ النوم عن أسرةِ كنج كونج وكونجيجي الصغير وكونجاية، وهي أسرةُ الحيوانات التي تحكي لولدها عنها قبلَ النوم، نفس حكايات أبيها لهما، الفارق أنَّ وجه أمها لا يطلُّ مِن وراء الباب مؤذنًا بانتهاء وقت الحكاية.

اليوم الأخير في زيارتها، أمضت بعضَ الوقت مع أختها في المستشفى، زارتِ الصغيرَ في الحضانة، حضَّرت بعضَ الطعام للأسرة ليكفي الأولادَ وزوجَ أختها في الفترة القادمة، وفي المساء حكتْ للأولاد حكايتهم قبلَ النوم، ثمَّ وهي تقبِّلهم قالت لها الصغيرة: "أنتِ بتبوسيني كتير..".. "مش عايزاني أبوسك؟".. "أيوه، أنا أكره البوس.. علشان ده حاجة ياكي".. ضحكت واحتضنتها، قبَّلتهما وغادرت، وهي تغلق بابَ غرفتهما شعرت بيدٍ تقبض على قلبها بقوَّة وتعتصره.

ذهبتْ لتودّع أختها في المستشفى، وهما تحضنان بعضهما، انفجرت أختُها بالبكاء وهي تقول: "بعدما وجدتك تذهبين مرةً أخرى!".. "لن أذهب أبدًا". رغمَ تعب أختها أصرَّت أنْ ترافق سلمى حتى باب المستشفى. ركبت سلمى التاكسي المنتظر، بينما تنظر وراءها لأختها تراءت لها أمها بنفس الطلَّة البهية التي كانت تُطالعهما مساءَ كلِّ يوم قبل وفاتها مُنهية روايةَ الأب لقصة وقتِ النوم. لوَّحت لأختها مودِعة وهي تجاهد في منعِ دموعها من التساقط.

وهي تستعدُّ بكل حماسٍ للذهاب لمعسكرها الصيفي الأوَّل للكشافة التي أصرَّ الأبُ على انضمامهما له،

كانت سعيدةً أنها وحدها دون أختها. فتحتْ حقيبة ملابسها وهي في غرفة المعسكر لتجدَ ورقةً صغيرة صفراء، مطبوع عليها ورودٌ بيضاء صغيرة، ومكتوب عليها.. "تمنياتي لك بوقتٍ ظريف.. وسعيد. عساكِ لا تنسين أبدًا أختك...". ومهرتْها بتوقيع.. "الوحيدة التي دائمًا وأبدًا بنتُ أمِّك".

قلوبُ البنات

الأبُ جالسٌ على المكتب، يقلِّب في كتاب، ويأخذ منه ملاحظات في وريقات صغيرة. الأمُّ على أريكةٍ بجوار المكتبِ تشاهدُ التلفزيون. تدخل الابنة:

"بابا.. أبي".

"نعم".

"أنا بحبّ حسام".

يرفع رأسَه من فوق الكتاب، ويقول مندهشًا: ".. نعم!".

الابنة بتأكيد: "بحبّ حسام".

تتدخَّل الأم: "حسام مين؟".

"حسام جارنا".

يقول الأبُ بهدوء: "وحبِّتيه ازَّاي؟ شُفتيه فين؟ شفتِ شراباته متعلَّقة على الحبل فحبِّتيه من شراباته واللّا إيه يعني!؟".

"لأ طبعًا مش كده".

"شفتيه فين علشان تحبّيه؟".

"مرّتين تلاتة لمّا باطْلع أزور ثريّا بيقعد معانا أحيانًا".

"فكَّريني كده انتِ في سنة كام؟".

"في أولى إعدادي".

الأمُّ متدخِّلة بحنان: "مش شايفة إنَّ الكلام ده لسَّه بدري عليه؟".

"لأ يا ماما، أنا مش عايزه أكمِّل دراستي.. أنا عايزه أتجوِز وأقعد في البيت".

"عظيم..." يعلّق الأب مُغتاظًا، ثمَّ يقول بهدوء: "طبْ ممكن تسيبيني أنا وأمك نتكلِّم شوية؟! فيه موضوع مهمّ عايزها فيه".

"طبْ رأيك إيه الأول؟".

"في إيه؟"

"في موضوع حسام".

"هقولّك بُكره".

تتَّجه الابنة إلى خارج غرفة المكتب وهي تقول: "تصبحوا على خير".

تلتفتُ الأمُّ إلى الأب وهِي تربِّت على كتفه وتقول ضاحكة: "معلّش.. هدِّي نفسك، البنت صغيرة.. ومش فاهمة هي بتقول إيه! تلاقيها شافت فيلم لعبد الحليم واللّا حاجة.. المهم هنقولها إيه؟".

"يا شيخة أنا كان نفسي أدِّيها بالقلم! واللّا أقولها غوري من وشي.. دي حاجة تفلق.. إحنا دلعنا البنت دي، دلَّعناها قوي، شوفي ولاد العيلة التانيين كلُّه بياخد بالجزمة.. دي باظت علشان بنت وحيدة.. آل بحبِ حسام آل! آل تصبحوا على خير آل...".

"معلش، معلش.. دي عيِلة".

"هفكَّر شوية وبُكره يحلَّها الحلال. بسّ طلوع تاني عند ثريّا مفيش خلاص..".

الأم ضاحكة: "طبعًا، وهي دي فيها كلام!".

صباح اليوم الثاني، يطرق الأبُ بابَ الابنة: "صباح الخير".

"صباح النور يا بابا".

".. بالنسبة للموضوع اللّي اتكلمنا فيه امبارح.. أنا فكَّرت إنِّك لازم تستني شوية وماتحبيش حدّ دلوقت".

"ليه يا بابا!؟".

"علشان لازم تاخدي الإعدادية الأول".

"بسّ أنا خلاص زهقت من المدرسة ومن المدرسين".

"معلش اصبري لحدِّ الإعدادية.. على الأقل يبقى معاك شهادة".

"طب وحسام..".

"هقولّك حاجة.. الحبّ ده حاجة جميلة جدًّا.. بسّ نخلِّيها في قلبنا لحدّ ما تاخدي الإعدادية.. ساعتها لو لسّه بتحِبي حسام نتكلِّمَ تاني.. اتفقنا".

بعدَ تفكير: "اتفقنا".

"بسّ عندي شرط.. ما حدِّش يعرف الموضوع ده إلّا أنا وماما.. يعني ما تكلميش حدّ تاني فيه أبدًا، ولا حتى ثريا".

"اتَّفقنا يا بابا".

"طب فين بوستي بقى؟".

تحتضنه وتقول: "يا حبيبي يا بابا".

تمرُّ أيام وسنون

"بابا..".

الأب مستغرقٌ في العمل ولا يردُّ لأول وهْلة.

"بابا.. ".

"أيوه يا حبيبتي".

"ممكن أتكلم معاك!".

"طبعًا اتفضلي".

"أنا...".

"أيوه...".

"أنا بحبك قوي.. أنت وماما.. وكمان حسين".

"نعم يا ستي.. مين حسين ده؟".

"ده ابن عمّ دينا زميلتي في الفصل".

"وانتوا بقى لمّا بتشوفوا بعض بتذاكروا واللّا بتحبوا؟".

"بابا، لو سمحت أنا بتكلِّم بجد".

"طيب مطلوب منّي إيه دلوقت؟".

"أنا مش عارفة أعمل إيه".

"في إيه؟".

"تفتكر أقولُّه؟".

"نعم.. هوّ حسين بيه ما قالش حاجة؟".

"لأ يا بابا..". وتنفجر باكية.

يحتضنها الأبُ ويقول: "طب بسّ بس.. اهْدِي وأنا

هروح أعمل فنجان قهوة، وبعدين نكمِّل كلام".

يغيب الأبُ برْهة، ثمَّ يعود حاملًا فنجانَ القهوة يضعه على الطاولة المجاورة للأريكة في غرفة مكتبه، ويتَّخذ مجلسه بجوار الابنة التي مازالت تجفِّف دموعها بالمنديل الورقي وقد احْمرت عيناها وأنفها. يضع يدَه حول كتفها ويقول:

"بصّي بقى.. أنا مش هقولك زيّ خالك ما قال لبنته أنا ما عنديش بنات تحِب.. واللّا إيه الكلام الفارغ ده.. أنت بنت كبيرة في ثانوية عامة، وكلّها سنة ومِش هعرف عنك حاجة إلّا اللي انت عايزاني أعرفه.. بس بفكَّرك بحديث علِّمتهولك زمان لمّا خبّيتِ روايات عبير في الشنطة وكنت بتقريهم من ورايا.. فاكره الحديث ده؟".

"أيوه فاكره.. الإثمُ ما حاك في نفسك وكرهتَ أن يطَّلع عليه الناس".

"برافو.. نيجي بقى لموضوع حسين.. فيه قصيدة جميلة لنزار قباني بيقول فيها كلام كتير، بسّ من أهمِّ ما فيها لمّا بيقول لحبيبته.. حسبي وحسبك أن تظلّي دائمًا سرًّا يمزِّقني وليس يُقال".

"يعني إيه يا بابا؟".

"يعني هوّ بيحب، بسّ لسبب أو آخر مش قادر يعلن حبه ده، فبيتعذِّب بيه وهو ساكت.. فاهمة؟".

".. مش قوي".

"يعني إذا الحُب مش من الطرفين زيّ حالتك انتِ

وحسين يبقى نخلّيه جوّانا ومنطلّعهوش أبدًا".

"بسّ هو كلّ تصرُّفاته بتقول إنه بيحبني".

"فيه رجالة كتير كده.. كلّ تصرفاتهم تقول إنّهم بيحبوكِ بسّ ما بيكنوش بيحبوكِ.. بيلعبوا بالناس".

"بسّ حسين مش كده".

يرفع الأبُ يدَه من فوق كتفِ ابنته ويقول لها: "طبعًا أكيد.. حسين ده ملاك".

"بابا، أنا مش بهزر".

"ولا أنا. طب ماشي حسين ملاك.. بسّ هتقوليله بحبّك هيقولّك متشكرين.. هتعملي إيه؟ في الحاجات اللّي زيّ كده لازم الراجل هوّ اللي يبدأ".

"بسّ السيدة خديجة هيّ اللي طلبت تتجوِّز الرسول عليه الصلاة والسلام".

"أيوه يا حبيبتي.. ده سيدنا محمد، ودي السيدة خديجة أمّ المؤمنين.. مش حسين وليلى! وبعدين إحنا لازم نركِّز دلوقت في المذاكرة، فاضل شهرين على الامتحانات.. وإحنا متفقين على طبّ زيّ بابا وماما مش كده؟".

"أيوه كده".

"يبقى اتفقنا.. نخْلص الامتحانات وبعدين نتكلِّم.. ده في حالة إنّ حسين قالّك حاجة.. لو حسين ماقالش يبقى هنستنّى لحدِّ ما حدّ محترم ييجي ويقول.. مش كده واللّا إيه؟".

"حاضر يا بابا".

"بسّ مش عايزك تذاكري عند دينا تاني.. دينا لو عايزه تذاكر معاك تجيلك هنا...".

"ليه يا بابا؟ هيّ دينا ذنبها إيه؟"

"مالهاش ذنب، بسّ أنا مش عايز حسين يفتكر إنك بتفرضي نفسك عليه.. مش كده واللّا إيه؟ ولو حسين بيحبّك ولَقَاك اختفيتِ هيحاول يوصلك، صح!؟ فندِي فُرصة لكلِّ الحاجات دي تحصل ونشوف".

"صَح. مش عارفة أعمل من غيرك إيه يا بابا..." تقبِّله وتحتضنه.

"طيِّب تصبحي على خير".

"وانتَ من أهله".

يدخل الأبُ غرفة نومه، يفتح النور ويقول لزوجته التي تململتْ في الفراش: "أنتِ نايمة وسيْباني في العكّة دي لوحدي!".

"عكّة إيه لا سمح الله؟".

"بنتك يا ستي".

"ما لها؟"

"بتحب".

يضحكان...

مرَّت سنون أكثرَ من الأولى...

الساعة التاسعة مساء، صوتُ موسيقى كلاسيك ينبعثُ من داخل العيادة، رائحة السيجار تغمرُ المكان، يدق جرس العيادة. يفتح الأبُ الباب يقول: "أهلًا..

تفضَّلِ". ويقود الزائرُ إلى غرفة العيادة الرئيسية حيث مكتبِ الأب، يشير إلى الزائر أنْ يجلس.

يتَّخذ الأب مجلسَه على مكتبه الكبير، ويمضي بعضُ الوقتِ وهو يرتِّب بعضَ الأوراق على المكتب. بدأ الضيفُ يتململ ويزفر زفراتِ قلق، وأخيرًا يلتفتُ إليه الأب وهو يقول: "خيرًا؟".

يردُّ الزائر: "حضرتك اللّي طلبت تقابلني".

"أيوه صحيح".

"طيب".

"لأ مش طيب. قولّي يا بني.. أنتَ في سنة كام؟".

"زيّ ما حضرتك عارف إحْنا في امتياز، أنا زميل ليلى".

"أيوه أنا عارف. طبْ وانتَ بقى فاضي في امتياز ما وَرَاكش حاجة إلّا إن انتَ تطارد بنتي بتلفوناتك طول الوقت، وتمشي وراها بعربيّتك ليل ونهار؟".

"لأ يا فندم، حضرتك يا دكتور فاهم الموضوع غلط".

يقول الأبُ مقاطعًا: "إزّاي بقى؟ يا ريت حضرتك تفهمني".

"أيوه ما انا جايّ لك في الكلام أهه.. أنا وليلى بنحب بعض".

الأبُ مقاطعًا: "لأ، كنتم بتحبوا بعضٍ.. دلوقت خلاص ومتهيّألي ليلى كانت واضحة جدًّا معاك في الموضوع ده".

"حضرتك إحنا اللّي بينّا كبير قوي.. مش ممكن يخلَص بكلمة. دول خمس سنين.. حضرتك مش عارف اللّي كان بينّا".

الأبُ مقاطعًا مرّة أخرى وقد ارتفع صوتُه في غضب عارم: "مش عارف اللّي كان بينكم.. طب بُص يا ابني.. أنا هقصّر عليك السكة.. تمتم مع بعض.. كان بينكم عيال.. مهما كان اللّي بينكم".

"لأ يا فندم ما تفهمنيش غلط...".

الأب: "اخرسْ خالص.. اخرسْ واسمع.. مهْما اللّي كان بينكم.. خلاص يا سيدي خلص، وهيّ مش عاوزه تشوف وشّك. هوّ إيه.. الحُب والجواز بالعافية؟ اعقلْ كده واتْلفت لمستقبلك، وإلّا والله العظيم هندّمَك.. فاهم.. هندِّمَك".

"يا فندم.. أنا بحبّ ليلى".

"حَبَّك بُرص.. أنتَ ما بتفهمش.. البعيد غبي! هيّ قالتلك الموضوع خلص، وأنا أبوها دلوقت بقولَّك مش عايزين نسمع عنك تاني. فاهمني! أظنّ إني واضح جدًّا".

"واضح يا فندم".

"شوف بقى.. ليلى وصَّلتلك الرسالة دي.. فضلت تضغط عليها لحدّ ما أمّها كلِّمتك، وكمان مافهمتش، دلوقت أنا اللّي بتكلِّم، بعد كده مش هيبقى فيه كلام هيبقى وقت الفعل.. رسالتي وصلت؟".

"أيوه وصلت. خلاص أنا فاهم".

"فيه حاجة تانية".

"لأ يا دكتور، شكرًا".

"ركِّز في مستقبلك يا ابني، وربنا هيرزقك بأحسن مِن ليلى إن شاء الله. مع السلامة". يقوده لباب العيادة ويغلق البابَ وراءه. ينتظر الأبُ خمس دقائق ثمَّ يخرج هو أيضًا.

في المنزل، يفتح الأبُ الباب، تأتي الأمُّ راكضة قلقة: "هه.. إيه الأخبار؟" يردُّ الأب: "الموضوع خلِص خلاص". تزفر الأمُّ بارتياح: "الحمدُ لله، ده البنت بقالها شهر ما خرجتش ولا أكلت، مرعوبة ليطلَعلها في أيِّ حتَّة".. "بقولّك إيه.. بنتك حمارة، ده الواد كتلة غباء، إيه يعني الأوَّل على الدفعة بسّ غبي.. حدّ يحب حدّ غبي كده! الحمد الله خلصنا".. "طب لو ظهر تاني؟".. "مش هيظهر.. رسالتي كانت واضحة".. "طب ممكن تقولّها؟".. "لأ مش قادر أشوفها دلوقت.. متغاظ منها.. كُل العواطف اللّي خَدِتها في البيت كان المفروض تخلّيها تختار حد أحْسن مِن كده.. إيه الخيبة دي! ادْخليلها انتِ وأنا هحضَّر العَشا". دخلت الأمُّ، احتضنتِ الابنة التي ارتمتْ باستسلام في حضنِها، وحكتْ لها ما تمَّ في اللقاء.

وأخيرًا...

"ماما، بابا فين؟".

"في مكتبه.. ليه؟".

"مفيش.. بسّ عايزاه في موضوع".

"خيرا"؟"

"هقولّك، بسّ لازم أروحله الأول"، تبتسم الأم، فهي تعلم علم اليقين أن ابنتها تحب إخبار والدها أولا ثم تلجأ إليها إذا ما تأزم الموقف.

زادت الأم "أنتِ هتضحكي عليّا.. إيه اللّي أخَّرك كده؟ قلتِ هخرج أحتفل بالنجاح في الماجستير مع صحابي.. قلنا ماشي، بسّ الساعة 12! ده كتير قوي".

"معلش يا أمي حقّك عليّا، مش هعملها تاني. هروح لبابا عُبَال ما تحضَّري العشا".

تطرق بابَ المكتب وهي تقول: "بابا...".

"أيوه يا حضرة الدكتورة، نعم. إيه اللّي أخّرك كده؟".

"معلش آسفة.. بسّ عايزاك في حاجة أهمّ من التأخير، مُمكن توطّي التلفزيون شوية؟".

يمسك الريموت، ويخفض صوتَ التلفزيون، وإن كانت عيناه مازالتا عالقتيْن بالشاشة وهو يقول: "خيرا".

"هاني عايز يكلمك".

"هاني مين؟".

"هاني الصواف".

"طب وهوّ هاني عايز إذن، ما هو طول النهار معايا في الجامعة، وبالليل في المستشفى، ويجيلي كلّ خميس علشان رسالته".

"معلش، بسّ هوّ عايز يكلمك في موضوع مهمّ.. عايز ميعاد يعني".

"هاني.. ابن عمو سيد؟".

"أيوه يا بابا".

يمسك بالريموت ويغلقُ التلفزيون، ويلتفت إليها بجدية: "هوّ في إيه؟".

ترتمي في حضنه وهي تقول: "أصلُه قالّي إنه بيحبّني وعايز يتجوّزِني...".

رفعَ حاجبيه من المفاجأة، وأشرقت عيناه بالسعادة. نظرَ إليها لحظةً متأمِّلًا.. ثمَّ ضمَّها ضاحكًا وهو يقول: "يا ربي.. تانييي" ونده على أمها.

نور

تقف أمامَها السيدة وتبصقُ علي الأرض، تمرِّر قدمَها على البصقة، لقد فقدتِ العَد، هذه البصقة المليون.. ربما! يقول صديقُها المغربي إنَّها حركة عنصرية، وعندما يمرون على البصقة بالحذاء فكأنَّهم يدهسون أهلَك المتوفين. كانت أمُّها تقول إنَّها طفلة في جسد امرأة، كانت تطبخ لها دائمًا الطعام الذي تحب، حتَّى لو الواحدة مساء. كبرت أمها ولم تعدْ تستطيع السير جيدًا، عكسَ خالتها النَّشطة التي تتسلق الجبال، هل هي فعلًا هكذا طفلة مازالت؟ عندما تنظرُ في المرآة ترى طفلةً بالفعل، لا ترى المرأة الكبيرة الجميلة، هل ستخلع الحجاب، قد يكونُ هو سببَ المشاكل، حتَّى في مصر ينظرُ للمحجبة نظرةً دونية في كثيرٍ من الأماكن والوظائف. أنت لستِ حرَّة، لا تدرينَ ماذا تضيِّعين.. وماذا تفقدين، غطاء علي الرأس هو غطاء على العقل! تعليقات تسمعها بتكرارٍ مُملّ كأنَّ الكل يحفظها، ويمرِّرها لبعضه البعض في أروقةِ الوزارة التي عيِّنت فيها بعدَ تخرجها منِ كلية الآثار، حيث كانت تعمل قبلَ أن تأتيها منحةُ الماجيستير فيِ هولندا. قال لها أبوها: "اخلعيه يا ابنتي، لا تجلبي الضرر لنفسك"، لا ضررَ ولا ضرار، حتَّى دكتور الدراسات الإسلامية يريدها أن تتخلَّى عن نفسها لتنقذ نفسها، أمُّها تصمتُ ولا تتدخل في الحديث، هي تعلم جيدًا الدكتورة القوية التي جابتِ العالم، وتحمَّلت الكثيرَ من أشكال العنصرية والتحديات، لن ترضَى بالضعف، وبخلع الحجاب، ولكن يا أمي نحنُ

لسنا في حرب، لا بدَّ أن أجد لنفسي نورَ الطريق، لا بدَّ أن أنهي الدراسة هناك بأي ثمن كان. تقول لنفسها ما لا تستطيع قولَه لأمها، تطاردها في المنام نظراتُ أمها، التي تعلم أنها تريد أن تقول لها: "استرجلي".

لا يقبلُ الرجل الأبيض أي رجل سواه، عليك أن تخلع جلدَك كي يقبلوك، مجرد قبول وليس حتّى دخول في المجتمع. صديقها المغربي له أختٌ خلعت الحجابَ وصبغت شعرَها أزرق، وهو يتظاهر بشُرب الخمر. تركوا وراءهم أمَّهم وأباهم في المغرب وأتوا هنا للدراسة، لم يتمكّنا من الانتهاء منها، مازالا يحاولان، الإنسان يظلّ يحاول.. ويحاول، ولكن اليأس مريح، لَم لا نيأس سريعًا، لماذا لم يكنْ كلّ أولاد نوح لونًا واحدًا، بيض.. زرق العيون، كانت البشرية لترتاح، مَن ترك خلفَه سيدنا نوح، الابن العاق مَن كان، أيّ جنسٍ في الأرض فقد بفقد هذا الولد، إن كان هو الشرير ومات، والطيبون هذا نسلُهم، فكيف سيكون نسلُ هذا الذي مات، لقد تعبت.

تقول الكاتبة صافي ناز كاظم إنَّه ليس هناك اليوم شيءٌ اسمه الحجاب، اسمُه غطاء الشعر أو غطاء الرأس، الحجاب كان لأمَّهات المؤمنين وليس لنا، هي على حقٍ ولكنِ هكذا يدعوه الناس، هل أخلعُه؟ قد يبتسم لها حارسُ منزل الطلبة حيث تسكن، وقد لا يغادرُ كلّ الطلبة المطبخَ عندما تدخل لتطبخَ طعامها، قد يتغير الكثير لو خلعته، أمُّها وهي مع أبيها في إنجلترا لنيل شهادة الدكتوراه لكلٍّ منهما. كانت ترتديه على

هيئة غطاء رأس أودري هيبورن الممثلة السينمائية الجميلة، وربَّما أجمل وأرقّ سيدات السينما العالمية في ذلك الوقت. طِيب ممكن تغير الشكل، ترتدي البونيه التريكو، مناسبٌ للبرد، وموضة، مَن تخدعي يا نور؟! سيعرفونِ أي شكلٍ على رأسك، أستاذة الجامعة اللعينة التي تصرّ على الكلام معها بالهولندية رغم أنها في القسم الإنجليزي حتَّى في الامتحان، ممّا أدّى لرسوبها في المادة، قد تصبح أكثر لطفًا.. ربما تتحدّث الإنجليزية حينها، هل تتحدث المدرّسة الإنجليزية، ولكنّ الحجاب على أذنيها يترجمه بالهولندية؟ هل غطاء على الرأس غطاء على العقل وغطاءٌ على الأذن! سأجن. تقفز إليها كلمات أستاذها في الجامعة في مصر الذي يتَّهمها أنها "فلاحة"، والذي يعرف أمَّها وأباها جيدًا، ولكنَّ الحجاب على رأسها مع تفوّقها يضايقانه.. كلما همَّت بالإجابة قال: "ده كلام فلّاحين". تسكت وتجلس في المدرَّج، ونفسها أن تردّ قائلة: وما لهم الفلاحين! أليس مصر كلها فلاحين، عنصرية في بلدها الأمّ وعنصرية هنا، يشعر الإنسانُ فيما يبدو بتحققه في العنصرية، هو الأفضل، والأرقي والأحسن، والآخرونَ رعاع دون المستوى.

دخلتِ القهوة في نهايةِ شارع بيت الطلبة الذي تسكنُه في مدينة أماستفيل على حدود أمستردام، البردُ قارص، ولكن الجوّ حميم، الألوانُ رمادية مشبّعة بخضار على استحياء. يقول الجميع إنَّ إفطارَها شهي، غالي الثمن ولكنْ شهي، ولأنَّها استلمت التحويلَ المالي الشهري من جهة المنحة قرَّرت أن تتناول الإفطار فيه، وسيلحق

بها صديقُها المغربي الذي يدرس معها تخصُّص الآثار والترميم. أخذت عددًا من الخطوات ليوقفها صوتُ صاحب القهوة وهو يشير إليها بأصبعه السبّابة، وبصوتٍ عالٍ يقول: "أنت اخرجي.. إيّاك والدخول هنا". نظرتْ له في ذهول، وأشارت إلى نفسها، وقالت: "أنا! تقصدني أنا؟" صرخ بصوتٍ أكثرَ ارتفاعًا: "أيّ شيء لا تفهمين، هذا الشيء- وأشارَ إلى رأسها- يجعلكنّ غبيات، نعم أنت إلى الخارج". احمرَّ وجهُها وهمَّت بسبِّه، ولكن اختنقَ السبابُ في حنجرتها. اختنق صوتُ الغضب في حلقها، استدارتْ وخرجت، أخذتْ عددًا من الخطوات بعيدًا عن المكان، جلستْ على الرصيف، وانخرطت في البكاء.

عندما جاءَ صديقها المغربي ووجدَها على هذه الحال، وعرفَ ما جرى، جنَّ جنونه وصرخَ قائلًا: سأقتله. استجابَ لتوسّلاتها بصعوبةٍ وهي ترجوه ألّا يدخل، وأن يذهبا لمكان آخر. غضبُه يذكّرها بالرجال المصريّين، يغضبون ويضربون أيَّ شيء أمامهم، لا يهمّهم شيء في سبيلِ الدفاع عمّا يحبون. كانت تكره هذا، وتصفهم بالهمجيّة، ولكنِ الآن يعجبها رد فعلِ صديقها، تود لو تتركه يهدّ المحلَّ على أصحابه ولا يهتم، بما يمكن أن يحدث، ولكنها الآن أعقلُ من أن تترك هذا يحدث! سيضيع مستقبلُه لفعل هذا، سيأتي البوليس ولن يعتدَّ بالعنصرية وسيوثق الاعتداء، ويخرج منها صاحبُ المطعم بينما يضيع صديقها للأبد، ما أجمله الشرق بحميته ودفئه رغم كلِّ شيء.

أين الشمسُ هنا، لم ترَها منذ شهر، الجوُّ الرمادي والمطرُ المستمر يثقلان روحها ويسحبانها للأسفل، تسير بثقلٍ شديد. تشعر أنَّ روحها في قدميها، تعلم أنَّ أية مواجهة سيخسر فيها الغريبُ في بلاد الرجل الأبيض، لن تقفَ الشرطة مع غريبٍ مهما كان الوضع. عندما سافرت أمُّها أولَ مرَّة وهي طالبة للعمل في معسكر للأيتام في إيطاليا في تسعينيَّات القرن الماضي جلست إحدى الفتيات الطاليانيات علي حِجْر أمها وأمسكت يدَها وأخذت تفركُها فركًا شديدًا، لم تفهمْ أمها، وسألتها: "ماذا تفعلين؟". قالت الطفلة: "أنا أحبك، ولذلك أريد أن أنظِّف يدكِ من هذا اللون القذر الأسمر لتكوني جميلة مثلنا". العجيب أنَّ الطفلة كانت سمراء، وذاتَ شعرٍ مجعَّد كما تصف أمها، ليست من أصلٍ أوروبي، ولكنْ ترعرعها مع الأوروبيّين جعلها تشعر أنها مثلهم، ولا ترى التماثلَ بين لون بشرتها ولوْن بشرة أمي! الزمن لا يمرّ، أمراضُ البشريةِ هي هي، لا يغيِّرها الزمن، يدفنُها قليلًا، حتَّى تظهرَ للسطح مرة أخرى، تختفي تحتَ انتشار محلات الأمل المغربي والهندي، ولكن هيهات أن يكون لهم نفسُ الحقوق التي للرجل الأبيض الذي يأكل هذا الطعام، نعم.. يأكل طعامَهم ويذهب لبلادهم حيث الشمس، ولكن لا يقبلهم إلا بشقِّ الأنفس. أمسكت يدَ صديقها المغربي السمراء، وسحبته بعيدًا عن المكان، وسحبت مع خطواتهم المبتعدة غضبَه وثورته، كأنَّهما بينما يسيران يدهسانها بخطواتهما.

وقفَا في حديقة كبيرة ، مثقلَا القلب، ينظرُ لها وتنظر له بصمت، أخذَا بضع خطوات، وجدا دكةً خشبية

صغيرة، جلست عليها، وظلَّ هو واقفًا ينظر حوله، رأى سيارة آيس كريم بعيدة، قال لها: "سآتي باثنين آيس كريم". قالت: "في البرد ده!".. "زيّ الفيلم المصري آيس كريم في جليم". ابتسمت بثقلٍ وقالت: "طيب شكرًا". سارَ مبتعدًا، طويل القامة جدًا، طيب القلب، يسكنا في ذاتِ دار الطلبة، تعرَّفت عليه عندما ساعدها على حمل البقالة الشهريةِ، شهامته مصرية جدًّا، يذكِّرها بذلك الشاب الذي ضربَ الرجل الكبير الذي كان يعاكسها في الأتوبيس في مصر، التفت له وقال له: "أنا سامعك، وكلّ مَن في الأتوبيس يسمعك أيها العجوز المتصابي".. ووقف بينها وبينه مدافعًا عنها.

كلُّ شيء في مصرٍ تفتقدُه، وبقوة، المواصلات، الزحام، الشمس.. تودّ لو تفتح باب بيتهم وتدخل وتشمّ رائحة الرطوبة والبرودة الجميلة التي تخرج من البلاط المزخرف القديم لأرضية منزلهم في مصر الجديدة، البيوت الجديدة في الكومباوندات ليست رطبة، ولا تحمل هذه البرودة المحبَّبة، جميلةٌ لكن بلا روح، تظلُّ القاهرة القديمة هي روحَ مصر، بيتهم في مصر الجديدة حيث يعبقُ بالروائح وأهمّها رائحة عطر أمها.

الآن، سيأتي صديقُها المغربي بآيس كريم ناعم في بسكوتة، ولكن لا يوجد آيس كريم مثل ذلك الذي يُباع في قويدر الكوربة، كَم خرجَا من المدرسة رأسًا إليه هي وصديقتها حتى في أيام الشتاء الباردة ، مازال طعمُ الشوكولاتة الغامقة في فمها.

ترى صديقَها قادمًا من بعيد، يسير نحوَها مسرعًا،

يخاف من ذوبان الآيس الكريم، يسرع الخُطى، يحمل اثنتين من الآيس كريم الأبيض في بسكوتة. الحديقة مشبعة باللون الرمادي، الأشجار أطرافُها بيضاء لا تعرف كيف! كأنها ترتعدُ من البرد، النجيلة تطلُّ على استحياء باللون الأخضر مع رُقع كثيرة جرداء، بينما يسيرُ نحوها مبتسمًا، ينظر إليها، تمتد يدها للدّبوس في الإيشارب، تسحبُه، وتمتد يدَها الأخرى تسحب الإيشارب وتطبقه بعناية وتغرس الدبوسَ فيه وتضعه في حقيبتها، مازال ينظرُ إليها وتبادله النظرَ بينما هي تسوِّي شعرها بيدها وتفكُّ الكعكة يُسرع الخطى نحوها، ينسدل ذيلُ الحصان الكستنائي على ظهرها، يصلِ إليها.. يقفُ أمامها، ينظر في عينيها.. تبادله النظر دونَ أن يطرف لها جفن، يبتسم بتردد، يناولها الآيس كريم، يجلس بجوارها، يأكلان الآيس كريم في صمت. الآيس كريم بارد، يزيد من برودةِ الجو، ترتعش قليلًا، تسرح بفكْرها، تهز رأسها لتصرف صورةَ أمها التي تقفز أمامها بنظرةٍ مشفقة.

وردة

يضجُّ البيت بالأصواتِ من كل اتّجاه. الأمُّ في المطبخ مع المساعدات والطباخ يحضِّرن الديك الرومي للدخول في الفرن، لقد باتَ البارحة مغطًّى في اللبن المخفوق بالبهارات ليتشرب الخلطةَ ويصير طريًّا شهيًّا تحت ألسنة نيران الفرن.

تترك مدام أمينة لعمِّ بدرٍ الطباخ ومساعدِه أحمد كلَّ أمور احتفال رأس السنة، إلا الديك الرومي، فهذا اختصاصها الأصيل. وضعتْه في الفرن واطمأنَّت. خرجت على دقات جرس الباب، أوقفت مساعدتَها وردة المُسرعة تجاه الباب قائلة: "أنا اللّي هفتح".

تمنَّت أن تمرَّ الزيارة على خير، فهي صاحبةُ الدعوة، والموضوعُ شائك، عادة لا تتدخل في هذه الأمور ولكنْ لا يمكنها السكوت هذه المرَّة، فهي تحب الفتاة جدًّا.

فتحتِ الباب وأدخلتِ السيدة التي وقفت أمامها بترحابٍ وهي تقودها إلى الصالون، بينما تنادي وردة: "اعملي لأمّك شاي يا وردة لو سمحت". تهرع وردة وراءَ الأم التي تُحكم الشال حولَ كتفيها وتمسك في يدِها بوكِ الفلوس، تنظر وردة لأمها بذهولٍ وهي تفتح عينيها وتهزّ رأسها بعلاماتِ تساؤل واضحة عن سبب حضورها اليوم.

تشيح الأمُّ برأسها بينما تأخذُ مجلسها في الصالون بجوار مدام أمينة، مازالت وردة متسمرة في مكانِها، تصرفُها

مدام أمينة بحركةٍ وَدودة من يدها: "يلّا.. يلّا الشاي بسرعة".

انفردت مدام أمينة بالأمّ وهي تقول لها: "شكرًا إنك جيتِ، أنا كان لازم أكلِّمك ضروري في موضوع مهم، وماكنش هينفع في التليفون، وردة قالت لي على موضوع حسين جوز أختها صباح، وقالت لي إنك مش مصدَّقة، وإنك ضربتيها علقة لمّا قالت لك، عشان تتأكدي.. أنا بنفسي سمعته وهو بيتحرَّش بيها في التليفون وبيقولها مرَّة واحدة بس.. وبعدها مش هقرَّبلك..".

قفزت الأمُّ في حركة لا تنمُّ عن سنين عمرها، وتناولت يدَ الست أمينة مقبِّلة إياها، والتي بدورها سحبتها مسرعة. قالت الأم وهي تنظر حولها بتوجس: "أبوس إيدك يا مدام.. أبوس إيدك ما تجيبي سيرة الموضوع ده لحد..".

قاطعتها مدام أمينة: "اقعدي يا حاجَّة أرجوكِ، مفيش داعي للكلام ده خالص..."

جلستِ الأم هذه المرَّة على طرف الكرسي، وبينما تُحكم الشال حول كتفيها استطردت قائلة: "أنا عارفة والله، طول عمره نِجس، ويبربِّل أمام الستات، بسّ ما أقدرش أقول لوردة إني مصدَّقاها، هعمل إيه! أطرد البتّ صباح وجوزها وكوم اللحم اللّي همّا مخلِّفينه؟ هعمل إيه مش عارفة! باعمل نفسي مش عارفة ومش مصدقة".

قالت مدام أمينة: "إيه الحل!! إذا.. تتّهمي البنت إنها هي السبب، وإنها أكيد عملت حاجة غلط خلته

يطمع فيها، وتشتميها بأبشع الألفاظ وهي بريئة وتجنينيها بالشكل ده!؟ أكيد مش ده الحل يا حاجَّة، وفي نفس الوقت ما ينفعش نسيب وردة تحت عنيه لأنّه لو ما وصلش النهارده للّي هو عايزه بُكره يوصل!".

"أنا عارفة وهتجنن والله، عشان كده بحبسْها لمّا ترجع من الشغل معايا في الغرفة وما بخرَّجهاش غير الصبح على الشغل تاني".

قالت مدام أمينة: "أيوه، بسّ ده مش حل، لازم نلاقي حل تاني...".

قاطعَ الأم دخولُ وردة بالشاي: "اتفضَّلي يامَّه".

"وما عملتيش حاجة لمدام أمينة يا حمارة". اربدَّ وجهُ وردة واحمرَّ وهي تقول: "مدام أمينة ماطلبتش".

قالت مدام أمينة: "وردة مش حمارة، دي فهّيمة وشاطرة، وعارفة إنّي لو عزت حاجة هطلبها، شكرًا يا وردة روحي انت".

خرجتْ وردة متعثرةً في خجلها من تعنيف أمِّها لها أمامَ مدام أمينة وهي التي تعاملها بمنتهى الرِّقة.

أكملت الأم: "الحلّ إنّ وردة تقعد عند حضرتك، أنا عارفة إنّ حضرتك ما بتحبيش البيات بسّ والله مفيش حلّ تاني لحدِّ ما يجيلها عَدَلها". وتابعت برجاءٍ وتوسل: "أحب على إيدك يا مدام، والنبي ومِن نبَّى النبي نبي هيكون جميلك في رقبتي ليوم الدين".

صمتتْ مدام أمينة وهي تفكر..

التفتتْ على سماع صوت الباب، رأتْ زوجها داخلًا

من المكتب، قالت للأم: "لحظة واحدة". قامت ترحّب بزوجها: "أهلًا يا سليم، ينفع كده؟ شغل لحدّ يوم رأس السنة؟". أخذت منه البالطو وهي تمنّي نفسها أن يوافق على عرضها الذي سيمكنها من إبعادِ الفتاة عن الخطر حتى ينسى زوج الأخت الموضوع، أو ينشغل عنها. يسيران معًا نحو غرفة النوم بينما يطلّ رأس وردة من المطبخ مراقبًا ومتابعًا، ومتسائلًا عما يحدث.

عادتْ مدام أمينة للصالون، وقالت للأم: "خلاص وردة هتباتْ معايا من النهارده، وممكن تجيلك يوم في الأسبوع، أو لو تحبّي أنت تجيلها".

قفزتِ السيدة في محاولة جديدة لتقبيل يدِ مدام أمينة التي سحبتْها سريعًا، بينما تردِّد الأم كل الأدعية المُمكنة في هذا الموقف. سحبت الأم الشالَ الذي سقطَ من على ظهرها على الكرسي، وأعادت إحكامَه حول كتفيها وهي تستعدّ للمغادرة، بينما تمسك بوك الفلوس بقوّة.

تسيران معًا في اتّجاه باب المنزل، تندَه مدام أمينة وردة وتقول لها: "أنا اتّفقت مع والدتك إنك هتباتي عندي يا وردة، أتمنى ما يكونش...". قاطعتها وردة وهي تحتضنُها: "شكرًا.. شكرًا يا مدام أمينة، أنا خدامتك والله".

قالت مدام أمينة بسرعة، وهي تبعد وردة برفق: "لا.. لا، أنتِ هنا بنتي لحدّ ما أسلمك لجوزك بإذن الله". تركت مدام أمينة وردة وأمّها على الباب وذهبت لتتابع المطبخ والسوفرجي الذي يعدّ طاولة الطعام لضيوف المساء.

بعدَ انتهاء اليوم، ومغادرة الضيوف دخلتْ مدام أمينة إلى غرفة النوم، بينما تغلق الشباك لمحتْ وردة تقف بدلالٍ على باب الفيلا مع أحمد مساعد الشيف، قبلَ أن يركب السيارة التي ستقلهم لأقرب موقفٍ مشروع، وهو يمشي يلتفت لوردة ملوِّحًا بيده مودِّعًا، تلوح هي أيضًا وتغلق باب الفيلا بالمزلاجِ، وتسير عائدةً للفيلا. تبتسم مدام أمينة وتحكم إغلاقَ الشباك ملتفتةً لزوجها سليم ببسمة رضى ونظرة حب.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook